– ليس من الحكمة في شيء إصدار قرارات عفو خطيرة كهذه في أيام جلوسك على العرش البابوي الأولى.

فأجابه البابا:

– إني أدرى منك بمثل هذه المسائل. فألافذاذ في فنهّم من الرجال مثل (بنڤنوتو) هم فوق القانون ولاسيما هو شخصياً. ذلك لأني أعرف كم أستُفزّ.

وهكذا صدر (كتاب الأمان) وبدأت فوراً بخدمة البابا ونلت حظوة كبيرة عنده.

ثم جاءني (لاتينو چوڤينالي) نفسه وأبلغني رسميّاً بأن البابا قد عهد اليّ بمهمة ضرب نقده. وقد أزعج هذا كل أعدائي. وبدأوا يحاولون الإيقاع بي ووضع العقبات في سبيلي. ولماسمع البابا بهذا أشبعهم توبيخاً وتأنيباً وأكد لهم إصراره على أن أقوم بالعمل. وبدأت بعمل القوالب للقطعة من فئة الكراون[١٧٤]، فجعلت فيها صورة الرسول پولس مع عبارة "تمّ إنتخابه Vas electione". لقد خلفت هذه المسكوكة إنطباعاً في البابا يفوق ما خلفته التصاميم التي قام منافسيّ بعملها. وبنتيجة ذلك صرّح بأنه لايود بعد الآن أن يسمع كلمة واحدة بخصوص العملة. فقد قرر نهائياً أن أكون المسؤول عنها ولا أحد غيري. فبدأت عملي آمناً مرتاح البال وكان السيد (لاتينو چوڤينالي) يهيء لي مقابلاتي مع البابا كما رسُم من قبل قداسته. وأردت إستعادة وظيفتي في دار الضرب. إلاّ أن البابا ركن الى المشورة في الأمر فقال لي أنه سيعيدني بعد أن أنال العفو عن جريمة القتل وأن أظفر به في يوم عيد سيدتنا مريم[١٧٥] الذي يقع في شهر آب، عن طريق أعضاء بلديّة روما. والسبب في هذا هو أن العادة جرت كل سنة في يوم هذا العيد الكبير أن يمنح هؤلاء الموظفون حرية إثني عشر متهماً خارجاً على القانون. وقال إنه سيزوّدني خلال ذلك بكتاب أمانٍ آخر كفيل بحمايتي حتى ذلك اليوم.

عندما وجد أعدائي فشل حيلتهم في الحيلولة بيني وبين دار الضرب فكروا في مؤامرة أخرى. كان الميت (پومپيو) قد أوصى بثلاثمائة دوقية مهراً لأبنة غير شرعية له. فدبّروا تزويجها بأحد مقربيّ النبيل (پييرلويجي)[١٧٦] إبن البابا، كيما يستخدم هذا الشخص حظوته عند سيدّه ليطلب يدها، فتمّ لهم ذلك. كان هذا العريس فتىً من الريف ربّاه (پييرلويجي) وقيل أنه لم يقبض من مهر عروسه إلاّ النزر اليسير إذ أستولى پيير عليه لسيده هذا. وأخذ الفتى الريفيّ إرضاءً لعروسه يلحّ بإستمرارٍ على سيده راجياً منه أن يسعى في إعتقالي. فتعهد له بذلك حالما يعلم أن مكانتي عند البابا قد إعتراها وهن.

(١٧٤) بحساب ذلك الزمن الدوقية الذهب الواحدة تسوى عشرة كراونات غير ذهبية. والكراون الذهبي يعادل دوقية ذهب أو أقل قليلاً.

(١٧٥) هو الإسم الفلورنسي لعيد (الحبل بلادنس) عند الكاثوليك. ويقع في ١٥ آب. لقد تم إصدار العفو عن چلليني عن طريق نقابة القصابين.

(١٧٦) هو إبن البابا پولس الثالث غير الشرعي. أغدق عليه أبوه المال والجاه وأحاطه بضروب العز وفي العام ١٥٤٥ نصبه دوقاً لپارما وپياجنزا. كان نذلاً ساقطاً لايُؤمن جانبه غدّاراً لامزية فيه ولانفع. أقدم بعض رجال من حاشيته على ذبحه وأنقذوا رعاياه من شرّه في العام ١٥٤٧. ووصف چلليني له مطابق لسيرته تماماً.

وبقي الوضع هكذا مدة شهرين. ثم لما حاول هذا الخادم المطالبة بالمهر أوقف (پيير لويجي) مساعيه. إلاّ إنه أكد لزوجة الرجل بأنه سيثأر لها من قاتل أبيها على كلّ حال. ومع معرفتي بما يجري فقد أكثرت من زياراتي لـ(پيير لويچي) وكان يتظاهر بالودّ الكثير. في الوقت الذي كان قد إعتزم أحد أمرين: إمّا أغتيالي أو حمل البارجللّو على إعتقالي.

وعهد الى شيطان كورسيكيّ صغير بمهمّة القضاء على حياتي بصورة دقيقة محكمة جهد إمكانه وفي الوقت عينه وعد أعدائي وعلى رأسهم (ترايانو) ذاك الكورسيكي الصغير، بجائزة تبلغ مائة كراون وزعم هذا أنه سيقتلني بالسهولة التي يشرب بها بيضة حديثة الوضع غير مسلوقة. وكنت على علم بما يدبّر لي فاحتطت للأمر، فإذا سرت فبرفقة عدد من أصحابي. وإذا خرجت لا أخرج إلاّ مشتملاً بزردٍ سابغ محبوك مسلحاً بغدارتين إستحصلت بهما ترخيصاً رسمياً لاتغفل عيني ولاتغمض. ولفرط طمع هذا الكورسيكي فقد ظن بأنه كفيل وحده بالمهّمة لئلا يشاطره أحدٌ آخر ثمن رأسي، وإنه لن يتعرض إلى أي خطرٍ. وذات يوم أرسل يطلب حضوري نيابةً عن السيد پيير لويجي. وكان ذلك بعد الظهر فتوجهت إليه حالاً. لأن السيد كان ذات مرة قد نوه برغبته في أن أصنع له بعض الآنية الفضية الكبيرة الحجم. غادرت منزلي وأنا بكامل شكّة سلاحي كالعادة. وإحتثثت الخطى في شارع (يوليا) وكلّ ظني أن الشارع خالٍ في تلك الساعة من النهار. بلغت نهاية الشارع وإنعطفت نحو قصر فارنيزي وأجلت نظري كعادتي فوقع على الكورسيكي الصغير وهو ينهض من مكمنه ويتقدم ليصير في وسط الشارع. وبهذا ضاعت عليه فرصة المفاجأة ولم أوخذ على غرّة لحسن إنتباهي. وتهيأت للدفاع عن نفسي فتباطئت في سيري قليلاً، وحاذيت الجدران لأوسع المسافة له. لكنه صار يتعقبني محاذياً الجدران، حتى قصرت المسافة بيننا. وإتضحت لي نية الشرّ التي يضمرها. وقد حسب انه نائل بغيته لا محالة حين وجدني وحيداً. بدأت الكلام فقلت له:

– أيها الفتى الباسل. لو إن الوقت ليلٌ لقلت إنك أشتبهت بي وظننتني شخصاً آخر. لكن الوقت نهار وأنت تعرفني حق المعرفة. ليس بيني وبينك نزاع وما أصبتك بضرٍّ ما. لكنيّ مستعدّ تماماً لأكون تحت أمرك.

أجاب وهو يعترض سبيلي. بصلافةٍ ولهجة وعيد قائلاً: إنه لايدري عَمّا أتحدث. فقلت:

– نيتك ليست بخافيةٍ عنيّ أبداً. واني أدري بماذا تتحدث، إلاّ أن المهّمة التي كُلّفت بإنجازها هي أصعب وأخطر مما تتصوّر، وربما إنقلب الأمر عليك. تذكرّ إنك تتصدى لرجل لايأبه بمائةٍ إن إجتمعوا عليه، إن ماتعهدت به ليس مما يتفق ومظهر رجلٍ شجاع مثلك.

في أثناء ذلك إتخذت أنا الآخر موقفاً عدائياً وإنقلبت سحنة كلينا وكأنا صرنا في حالة تأهب للإشتباك. وتكاثر المارّة حولنا وأدركوا بأن كلماتنا سيعقبها سيلان دماء. أخيراً خانته الشجاعة الكافية لمهاجمتي. وقال:

– لابأس عليك. سنلتقي ثانية.

فأجبت:

– إني لعلى استعداد دوماً للقاء ذوي الشأن من الناس أو من يبدو أنّهم كذلك.

وتركته وواصلت سيري الى منزل (پيير لويجي) لأجد أنه لم يرسل بطلبي. وبعد عودتي الى دكاني بعث الكورسيكي برسالةٍ عن طريق صديق للطرفين يعلمني فيها بألاّ حاجة تدعوني بعد اليوم الى إتخاذ الحيطة لنفسي منه، لأنه يريد أن يفوز بصداقتي. ولكن ينبغي لي أن أكون على حذرٍ دائمٍ من الآخرين لأني معرّض لخطر داهم. فقد حلف على هلاكي أناس ذوو نفوذ ومقام فشكرته برسالةٍ وزدت في إحتياطاتي. ولم تمض على هذا أيامٌ حتى أبلغني أصدقائي أن (پيير لويجي) قد أصدر أمراً بأن يُلقى القبض عليّ في مساء ذلك اليوم. ووصلني الخبر في آخر ساعات العصر، وإستطلعت رأي بعض أصدقائي فأشاروا عليّ بالفرار حالاً. ولما كان تنفيذ الأمر سيجري في الساعة الأولى من الليل فقد ركبت مع قافلة البريد القاصدة الى فلورنسا. والذي حصل هو ان (پيير لويجي) بعد أن أظهر الكورسيكي عجزه وإفتقاره الى الشجاعة لتنفيذ ما وعد به. أعطى الأوامر بإعتقالي بسلطانه الخاصّ تهدئةً لابنة (پومپيو) التي ظلّت تسأل عن مصير مهرها. وعندما فشل في كلتا المحاولتين في الثأر لها. دبّر أخرى ثالثة. سآتي الى ذكرها في مناسبتها.

وصلت فلورنسا وتمت مقابلةٌ بيني وبين الدوق (اليساندرو) فرحب بي بحرارةٍ فاقت العادة وحاول إقناعي بالبقاء في خدمته. على اني في تلك الأثناء التقيت بواحد من أصدقاء الصبا وقد كنت أبا عمادٍ لإبنه وهو نحّات يعيش في فلورنسا وأسمه (إل تريبولينو Il Tribolino)[١٧٧] وكنا يوماً نتجاذب أطراف الحديث فذكر لي أن أستاذه الأول (جاكوبو دل سانسافينو Jacobo del Sansavino)[١٧٨] قد إستدعاه الى البندقية ليشتغل عنده. ولما لم يكن قد شاهد هذه المدينة قبلاً فهو جدّ مشوق الى رؤيتها متوقعاً أن يربح مالاً كثيراً. ثم سألني هل سبق لي رؤية البندقية؟ فأجبت كلاّ. فرجا منيّ أن أرافقه ووعدته. لذا كان جوابي للدوق (اليساندرو) إني أودّ زيارة البندقية أولاً وبعدها سأكون جدّ مسرورٍ للعودة الى خدمته. وأخذ عليّ العهد والميثاق وأمرني أن أقصده قبل السفر لتبادل بعض الحديث. فتوجهت إليه في اليوم التالي بعد أن تأهبّت للسفر – لأستأذن منه. فوجدته في قصر پازّي Pazzi. الذي كان يشغله آنذاك السينور لورنزو چيبو دي مديتشي[١٧٩] مع زوجته وبناته. ثم أبلغته بموعد سفري عن طريق النبيل الشاب (كوزيمو دي مديتشي وهو اليوم دوق فلورنسا) فجاءني بالموافقة من سموّه وقال: عليّ أن أقصد (نيكولو دا مونتي أگوتو Nicolo da Monte Aguto) الذي سينقدني خمسين

(١٧٧) وإسمه الكامل (نيكولودي پيريكولي Nicolo de Pericole) (١٥٠٠–١٥٥٠) مهندس معماري ونحات فلورنسي تلميذ (اندريه كونتونجي دال مونتي أسانساڤينو). أنجز أعمالاً هامة في روما وبولونّيا ولوريتو لآل مديتشي بصورة خاصة. يؤثر عنه أنه صنع نموذجاً مصغراً لمدينة فلورنسا بطلب من الپاپا كليمنت أثناء القاء الحصار عليها.

(١٧٨) هو (جاكوبو تاتيّ) واحد تلامذة أندريه كونتونجي المار ذكره رحل الى البندقية وقت حصار روما. وبعدها إنصرف تقريباً الى هندسة المباني. كانت وفاته في ١٥٧٠.

(١٧٩) قاتل الدوق الساندرو وقد مَرّ ذكره في حاشية سابقة.

كراوناً ذهبياً وهي منحة من سموّه عربوناً لحبّه وعليّ أن أعود بعد الترفيه عن نفسي لأكون في خدمته.

تسلمت النقود من (نيكولو) ورحت أبحث عن (تريبولي). وكان ينتظرني وقد أكمل إستعداده ثم سألني هل حزمت سيفي ضمن المتاع؟ فأجبت: إن من ينطلق في سفرة على ظهر الخيل لايفعل شيئاً من هذا القبيل. فقال: إنه القانون داخل الأسوار في فلورنسا. وثم موظفٌ يتولى مراقبة مثل هذه الأمور يدعى (سر مورتزيو Ser Maurizio) لايتردد لاتفه الأسباب في جلد النبي يوحنا المعمدان نفسه. فعليك أن تضع سيفك بين المتاع ولا تتقلدّه إلاّ بعد خروجك من المدينة. فأطلقت ضحكة راعدة وإنطلقنا في سبيلنا، ولقينا أحد سعاة البريد القاصدين الى البندقية فانضمّ إلينا وكان يلقَّب بالنائح (Lamentone). واجتزنا (بولونيا) ثم بلغنا (فيرارا) مساء يومٍ وهناك وجدنا محلاً للمبيت في فندق يقع في الميدان. وخرج (النائح) يفتش عن بعض المبعدين السياسيين ليسلمهم الرسائل التي كان قد حملها لهم بإذن من الدوق من زوجاتهم. وخوّل الدوق الساعي أن يكلمهم وحده ولايدع أحداً يتصل بهم وإلاّ كان عقاب المتصل بهم عين عقابهم.

في غضون ذلك، وجدنا لدينا ساعتين من الفراغ قبل حلول الظلام فخرجنا معاً لمشاهدة عودة دوق فيرارا[١٨٠] من بلفيوري Belfiore بعد حضوره حفلة المبارزة بين الفرسان. ولقينا في طريقنا عدداً كبيراً من المبعدين الفلورنسيين. فأطالوا النظر فينا كأنما يريدون حملنا على الكلام معهم. فما كان من (تريبولو) وهو أجبن مَنْ عليها، أن طفق يردد بإستمرار:

– لاتنظر إليهم لاتخاطبهم بكلمة واحدة إن شئت العودة الى فلورنسا.

إنتظرنا مقدم الدوق وبعد ذلك عدنا الى الفندق، فوجدنا (النائح) هناك. وبعد الغروب بساعة واحدة. دخل الفندق كل من (نيقولو بنتنديN. Benintendi) ورجل مسنّ هو على غالب ظنيّ (جاكوپو ناردي J. Nardi)[١٨١] فضلاً عن عدد آخر من الشبّان. وراحوا يمطرون الساعين بالأسئلة حول زوجاتهم وذويهم في فلورنسا. وبقيت أنا (وتريبولو) بعيدين عنهم حتى نتحاشى مكالمتهم. بعد مجاذبة (تريبولو) أطراف الحديث برهةً. قال (نيقولو بنتنديي) مشيراً الينا:

– لي معرفةٌ جيّدة بالسيدين هذين. لا أدري كم بلغ بهما السخف ليستنكفا عن محادثتنا.

أشار عليّ (تريبولو) كالعادة بالصمت. عندئذ قال لهم (النائح) أننا ممنوعان عن التحدث إليهم. ولانملك الإذن الذي يملكه هو؛ فقال (بنتنديي) هذا هراءٌ في هراء، والى سقر بهما وبئس المصير. وأضاف الى ذلك أقوالاً لطيفة أخرى من هذا النوع وعند ذلك رفعت رأسي، وبكلّ ما أمكنني من

(١٨٠) هو الدوق اركولي الثاني.

(١٨١) هو المؤرخ الفلورنسي المشهور (١٤٧٦-١٥٦٣) وواحد من أنزه الجمهوريين وأشدهم حماسة. كان من الحزب المعادي لآل مديتشي. أبعد الى ليگهورن في ١٥٣٠، ثم الى البندقية وفيها دون تاريخ بلاده، وترجم تاريخ ليڤيLevy من اللاتينية. أما الاخوان (بنتنديي) فقد تمّ إبعادهما عن فلورنسا في ١٥٣٠، وكان نيقولو أحد أعضاء مجلس الثمانية.

لطف قلتُ:
- أيها السادة الأماجد في وسعكم إلحاق أكبر الأذى بنا. ونحن أعجز الناس عن مساعدتكم في عين الوقت. ومع إنكم وجهتم إلينا الفاظاً خشنة جداً فليس في نيتنا أن نفقد إتزاننا.
فقال الشيخ (ناردي) إنني نطقت بأقوال تليق بشابٍ مهذب طيب المنبت. إلاّ أن (نيقولو بنتندي) قاطعه قائلاً:
- فليقبّلا إستي، هما ودوقهما!
وأضاف يصفنا بأننا زوج من الحمير.
قلت إنه واهم بخصوصنا. ولا علاقة لنا قطّ بأموره. وإنحاز الشيخ (ناردي) الى جانبنا وقال لـ(بنتندي) إنه على خطأ. إلاّ انه مضى قدماً في إهاناته وشتائمه. عندئذ قلت له إني سأفعل وأقول له مايكره وعليه أن ينصرف لشؤونه الخاصة ويتركنا. فكرر قوله أن بإمكاننا نحن والدوق أن نلثم إسته وما نحن إلاّ زوج من الحمير، وعندئذ قابلت سبابه بمثله وجرّدت سيفي. فعثر الشيخ وهو يريد ان يستبق الى الدرج وسقط فوقه الآخرون وصاروا كومةٌ عليه. وإندفعت الى أمام أصول بسيفي هائجاً على إمتداد الجدار وأنا أصيح:
- لأبيدنكّم عن بكرة أبيكم.
إلاّ اني إحتطت بأن لا أمسّ أي منهم بأذى وإن كان ذلك عندي من أسهل الأمور. وفي وسط هذه الضجّة راح صاحب الفندق يصرخ. و(النائح) معه يصيح:
- لاتفعل!
وأخذ بعضهم يطلق صرخات إستنجاد "الغوث! القاتل!" والبقية يتنادون"ألا فلنخرج من هنا"! وإختلط حابلهم بنابلهم وكان منظراً عجيباً، يشبه قطيعاً من الخنازير ثم أقبل صاحب الفندق يحمل ضوءً. وصعد الى الطابق الأعلى وأغمدت سيفي. وطفق (النائح) يعاتب (بنتندو) ويلومه على سلوكه السيءّ بينما قال له صاحب الفندق:
- إن تجريدك سيفك هنا يعني المخاطرة بحياتك. ولو سمع الدوق بعملك الطائش هذا لأمر بشنقك وأنا لا أريد معاملتك بما تستحق. لكن إياك أن تريني وجهك في هذا الفندق والاّ ستنال ماتكره.
ثم توجّه اليّ فهممت بالإعتذار منه. إلاّ أنه أسكتني وقال أنه يدري كم ضبطت أعصابي وصبرت على الإهانات. ونصحني باليقظة والحذر من هؤلاء خلال رحلتي .
بعد تناول العشاء أقبلّ النوّتي ليأخذنا بمركبه الى البندقية. فسألته أيجوز أن نكتري قاربه لأنفسنا؟ ولما وافق عقدنا الإيجار. وفي صباح اليوم التالي إمتطينا خيولنا وقصدنا الشاطيء وهو يبعد بضعة أميال أو نحوها عن فِرارا.[١٨٢]

(١٨٢) تقع فِراراً في منتصف الطريق بين فلورنسا والبندقية الى الشمال الشرقي وبينها وبين نهر البو بضعة كيلومترات ومنها يركب المسافر الى البندقية قارباً يقطع به النهر حتى مصبّه في الأدرياتيك ويستأنف المسافر رحلته بحراً حتى البندقية.

وبوصولنا ثمّ، وجدنا أخا نيقولو بنتندي مع ثلاثة آخرين يرقبون طريقي وكانوا مسلحين برمحين. في حين كنت مسلّحاً بحربة جيدة إبتعتُها من (فيرارا). فضلاً عن كامل شكّتي من السلاح. ولم أشعر ولو بقليل من الخوف في حين طفق (تريبولو) يبكي ويندب قائلاً:

– رحماك اللهم! ها هم جاؤا لقتلنا!

التفتُّ اليّ (النائح) وقال:

– خير ما تفعله هو أن تعود الى فِرارا فالمسألة تبدو خطيرة. أرجوك يا بنڤنوتو لا تثر غضبهم ولا تستفزهم فهم كالوحوش الكاسرة.

أجبت:

– هَيّا بنا. فالله في عون صاحب الحقّ وعلى أيّة حال سترى كيف أكون في عون نفسي. أليس هذا هو القارب الذي أكتريناه؟

قال (النائح): بلى.

– إذن فكل ما يترتب عليّ عمله هو أن أركبه رغماً عنهم.

وهمزت جوادي وعندما صرت على مسافة خمسين خطوة منهم ترجّلتُ وسرت بقدم ثابتة متقدماً وأنا ممسك بحربتي. وتخلّف عني (تريبولو) وسار ورائي لاصقاً بظهر حصانه كأنه كتلة جليد. و(النائح) ينفخ ويلهث كزفيف الريح، وتلك عادته إلاّ أن نخيره وشخيره الآن كانا أكثر بكثير من المعتاد. وقد وقف منتظراً ما سيسفر عن هذه المشادّة اللعينة. ولما بلغت القارب تقدّم النوتي منيّ قائلاً إن هؤلاء السادة الفلورنسيين يرغبون في الإنضمام إلينا إن لم يكن لديّ مانع.

فأجبته:

– إكترينا القارب لأنفسنا وليس لأحد آخر غيرنا حقّ إستخدامه. وأنّ قلبي ليتنزّى ألماً لعدم إمكاني إصطحابهم.

وهنا قال شابٌ صلفٌ من أسرة (ماگالوتيّ Magalotti):

– بنڤنوتو! سنعمل على أن يكون بإمكانك ذلك.

فأجبت:

– إن كانت لمشيئة الله، وللحقّ الذي هو بجانبي ولقوّتي أثرها، فإنكم لن تستطيعوا أن تحققوا شيئاً كهذا.

قلتُ هذا وقفزت الى داخل القارب ثمّ سددت سنان حربتي إليهم وقلت :

– بهذا سأثبت لكم أن ما تريدون غير ممكن.

وأراد الفتى (ماگولوتي) أن يعرض فروسيته فأمسك بسلاحه وتقدم مني الاّ إني إنتقلت بسرعة إلى حافة القارب وسددت إليه ضربة كادت تخرقه وتصرعه في الحال لو لم ينكفيء الى الخلف. ولم يتقدم أحدٌ من رفاقه لمعونته بل نكصوا على أعقابهم. في هذه الحالة وجدت نفسي في موقف القادر على ازهاق روحه. إلاّ إني بدلاً من مهاجمته قلت:

- أنهض أيها الصديق والتقط سلاحك وأنصرف. إنك لترى الآن بكلّ وضوح بأني لا أستطيع حمل نفسي على عمل ما لاأريد عمله، وأن ماكنت أستطيعه لا أرغب في إتيانه.

ثم ناديت (تريبولو) والنوتيّ و(النائح) وإنطلقنا كلّنا الى البندقية. وبعد أن قطعنا عشرة أميال من مجرى الـ(پو) أدركنا الشبّان بزورقٍ. ولما حاذونا صاح بنا ذاك الأحمق (پييرو بننتندي).

- سر في سبيلك الآن يا بنڤنوتو. لكننا سنلتقي ثانية في البندقية.

فرددت عليه قائلاً:

- إذن فعجّل. فأنا ذاهب إليها وسأكون مستعداً للقائك في أي وقت.

ووصلنا البندقية وتوجهت إلى أحد إخوة الكردينال (كورنارو) أستمد منه النصيحة وسألته أيمكنني أن أحمل سلاحاً في المدينة. فقال أجل يمكنك ذلك بالتأكيد فإن أسوء ماقد تتعرض له لايزيد عن مصادرة سيفك.

وذهبنا والسلاح في أيدينا لزيارة النحّات (جاكوبو دل سانساڤينو) الذي كان قد أرسل يستدعي (تريبولو). قال له إنه ليس بحاجة الى خدماته في الوقت الحاضر. وبإمكانه مراجعته في وقت آخر. وما سمعت هذا حتى غلبني الضحك وقلت لـ(سانساڤينو) وأنا أبتسم:

- إن الشقّة بين منزليكما بعيدة بعض الشيء، في حالة مراجعته لك وقتاً آخر.

أما (تريبولو) المسكين فقد صُعق ولم يجد له في فمه الذاهل غير هذه العبارة:

- هاهي رسالتك عندي. كتبتها تطلب حضوري .

فكان جواب (سانساڤينو) أن الفنانين البارزين من عياره قد يقدمون على مثل هذه التصرفات بل وأكثر! وهَزّ (تريبولو) كتفه وظلّ يردد لنفسه "الصبر! الصبر!".

ورغم جودة الطعام الذي قدمه (سانساڤينو) لنا. فإني إنحزت الى جانب (تريبولو). إذ كان هو المحقّ قطعاً. ولم يكفّ (سانساڤينو) عن المفاخرة بإنجازه الأعمال العظيمة مستخفّاً بـ(ميكالنجلو) وغيره من النحّاتين وممتدحاً نفسه الى درجة لاتحتمل.

فأثقل على وضايقني حتى إني كنت أغصّ بكل لقمة تدخل فمي. ولم يصدر مني تعليق على أقواله إلاّ قولي:

- سيدي جاكوبو، أعلم إن الفنانين البارزين يتصرفون وفق ما يمليه عليهم فنُّهم وشهرتهم. والعباقرة الذين ينجزون الأعمال الرائعة الجيدة يبدون في أضواء أسنى وأبهى لو تركوا للآخرين أمر إذاعة مواهبهم والتغنّي بها والإشادة بأعمالهم بثقة وجرأة.

وقمنا، كلّ منّا يغلي غضباً.

في ذات اليوم كنت أتمشى بالقرب من الريالتو Rialto[١٨٣] فالتقيت پييرو بننتندي وكان بصحبة عددٍ من الرفاق. وقد أدركت أنهم ينوون بي شراً فأنسللت الى دكان صيدلي منتظراً مرور العاصفة. وبعد

(١٨٣) جزيرة ومنطقة مشهورة في البندقية وتقع على القناة الكبرى.

هذا سمعت أن الفتىّ (ماگالوتيّ) الذي عاملتهُ بكلّ لطفٍ وكرم قد أشبعهم تأنيباً. وهكذا إنتهت المسألة.

بعد أيام قلائل إنطلقنا الى فلورنسا عائدين. وفي الطريق أتفق لنا أن بتنا في موضع يلي (چيوگيا Cioggia)[١٨٤] على اليسار منها وأنت تقصد الطريق الى (فرارا). طلب صاحب الفندق أجرته مقدّماً حسب العادة التي إختطها وقبل أن نأوي الى فراشنا. وعندما قلت إن العادة جرت في الفنادق الأخرى أن يتم الدفع صباحاً، أجاب بقوله:

- إني أريد أجرة هذه الليلة مقدّماً وفقاً للسُّنة التي أختطُها أنا.

ورددت على هذا بقولي: إن أولئك الذين يريدون أن يُدفع لهم وفق ما يرسمون هم عليهم أن يصنعوا لأنفسهم عالماً خاصاً بهم يتفق مع ما يرسمونه لأن السنّة في هذا العالم تختلف عن سُنّتهم. فأجاب صاحب الفندق قائلاً: كفاني مضايقة له لإنه لن يحيد عن سنتّه هذه. وكان (تريبولو) يرتجف خوفاً ويلكزني ملحّاً بأن أسكت لئلا يتطور الأمر فنلقى ما نكره. وهكذا دفعنا الأجرة صاغرين كما رسمَ وآوينا الى فراشينا. وكانت أغطيتنا وأفرشتنا ممتازة حقاً وفي غاية النظافة وكلها جديد. لكنيّ أرقتُ ولم يغمض لي جفن طول الليل مفكراً في طريقة تنيلني ثأري. تارةً كنت أقلب في فكري إشعال النار في الفندق وتارة أفكرّ في ذبح الجياد الأربعة الأصيلة المربوطة في إسطبله. وكلتا الفكرتين سهلة التنفيذ. إلاّ اني ماكنت أرى وسيلة لضمان سلامتي وسلامة صديقي بعدها. أخيراً ما فعلتهُ هو أني وضعتُ أمتعتي وأمتعة (تريبولو) في القارب. ثم وبعد أن شددنا حبال الجرّ بالخيل قلت: إني نسيت خُفيّن في الفندق وسأذهب لإحضارهما وعليهما الاّ يحركا القارب حتى عودتي. عدت الى الفندق وناديت صاحبه. فأجاب أن لاشأن له بنا. وبإمكاننا أن نذهب ونسلق أجسامنا في المبغى. وكان يقف بالقرب منيّ خادم الأسطبل وهو صبي رثّ الهيئة أثقل النعاس عينيه فقال لي:

- لن يُحرك صاحب الفندق إصبعاً واحدةً للپاپا نفسه فهو يضاجع قحبةً كان يراودها منذ زمن طويل.

ثم طلب منيّ حُلواناً يكفي لكأسٍ من الخمر فنفحته بدريهمات من تلك النقود الصغيرة القيمة الرائجة في البندقية. وطلبتُ منه أن يذهب ويخبر الرجل المكلّف بحبال الجرّ أن ينتظرني قليلاً حتى أبحث عن خفيَّ وأعود. ثم صعدت الى الطابق الأعلى وإستخدمتُ سكيناً مرهفة الحَدّ لتمزيق أغطية وفرش الأسرّة الأربعة هناك قِطعاً قِطعاً. وأظنني أحدثت من الضرر ما يتجاوز قيمته خمسين كراوناً.

عدت الىَ القارب ومعي بَعض القِطع الممزقة من الأغطية دسستها في جيبي وأمرت الرجل المسؤول عن حبال الجرّ بأن يقلع بنا حالاً. وبعد أن قطع مسافة قصيرة مبتعداً عن الفندق. تذكر رفيقي (تريبولو) بأنه نسي سيور (كورگي Corregge) حقيبته الصغار في الغرفة ولا مناص من رجوعنا إليها. فقلت: لاتهتم بضياع سيرين صغيرين فبإمكاني أن أعمل له قدر مايشاء من أكبر (الكوّرجيّ) فوراً![١٨٥] فأجاب اني لا أنفكّ قطّ عن المزاح، وإنه سيعود لسيوره مهما كلّفه الأمر. والتفت الى

(١٨٤) بلدة على الساحل الأدرياتيك بينها وبين البندقية خمسة وعشرون كيلومتراً تقريباً.

(١٨٥) لكلمة Corregge في الأيطالية معينان: الأول الذي قصده تريبولو: هو السير الجلدي الذي تربط به الحقائب=

الحبّال آمراً أياه بالعودة، في حين كنت أحثّه للإسراع بنا الى الأمام. في عين الوقت شرحت لـ(تريبولو) الضرر الذي أحدثتهُ وأريته نماذج من الضرر بإخراجي قطع الأغطية وعرضها عليه مع السكين. فإمتلأ رعباً وراح يصيح بالنوتيّ للإسراع:

– عجّل، أسرع ولاتتوان.

وأبى أن يؤمن بخروجه من دائرة الخطر حتى بلغنا أبواب فلورنسا. وما أن شارفنا الأسوار حتى التفت اليّ قائلاً:

– ناشدتك الله أن نحزم سيفينا في متاعنا فقد كفانا مغامرات كانت مصاريني تتمعج في أحشائي طوال وجودي معك.

فأجبته:

– لاحاجة بك الى حزم سيفك في متاعك يا عزيزي (تريبولو) لأنك لم تشدّه الى وسطك قطّ.

قلت ذلك مبادهةً وعفو خاطرٍلأني لم أراه يُظهر رجولةً طوال الرحلة.

وعندها تطلع الى سيفه ثم قال متعجباً:

– والله إنك لمصيب! فها هو ذا مازال مشدوداً مثلما حزمتهُ قبل تركي منزلي.

كنتُ في نظر صديقي هذا رجلاً سيء الصحبة. لأني حافظت على كرامتي ودافعت عن نفسي محبطاً نيات الشرّ التي كانت تدبّر. وأنا من جهتي وجدت مسلكهُ أسوء بكثير من رأيه في مسلكي لأنه لم يتقدم لمساعدتي وقت الشدّة. ألا فليحكم بيننا المنصف المحايد.

ما أن ترجلت حتى أسرعت لمقابلة الدوق اليساندرو لأقدم له شكري على منحة الخمسين كراوناً. وبيّنت لسموّه بأني على أتمّ إستعدادٍ لخدمته في ما أحسنه من صناعة. ففوّضني حالاً في عمل قوالب لنقوده وكان أول قالبٍ عملته هو لمسكوكة بقيمة أربعين صولدياً[١٨٦] في وجهها صوّرت رأس سموّه وعلى ظهرها نقشت صورتي القديسين كوزيمو وداسيانو. فأعجب بها الدوق وحازت رضاه التام واصفاً أياها بأنها أجمل قطعة نقد في سائر بلاد المسيحيية وهذا ينطبق على كلّ من رأها وتعامل بها في مدينة فلورنسا وغيرها. وبنتيجة ذلك رجوت سموّه أن يعينّ لي مرتباً ويخصصّ لي مكاناً في دائرة الضرب. فأجاب: عليّ أن أستمر في خدمته وسيجزل لي العطاء فوق ما أتاملّ وأضاف يقول إنه أصدر أوامره لمدير دار الضرب وهو السيد (كارلو آچيويوالي Carlo Accioiuali) بأن يصرف لي ما أحتاج من مالٍ. وقد تبين لي أن الأمر كما قال. إلاّ اني كنت لا أسحب إلاّ القليل. لأبدو موضع ثقة وإطمئنان.

ثم اني صنعت قالباً لمسكوكةٍ من فئة (گويليو Guilio) على وجهها صورة جانبية للقديس جيوڤاني وهو جالس على مقعدٍ وبين يديه كتاب يقرأ فيه. ونقشت على الظهر منها شعار الدوق اليساندرو ولا

=والصناديق. والمعنى الثاني الذي قصده چلليني هو (الضرطة) أي خروج الريح من الدبر مع صوت. وبهذا يتضح المزاح الذي قصده چلليني.

(١٨٦) الصولدي هو أصغر عملة في أوروپا.

أظنيّ صنعت مسكوكة بمثل هذا الجمال. وعملت قالباً ثالثاً لمسكوكة من فئة نصف (گويليو) صوّرت فيها وجه القديس جيوڤاني كاملاً وهو في فتوته. وهي فضية، لايقدّر وجه الصعوبة فيها إلاّ الخبراء في الفنّ. أخيراً قمت بعمل قالبٍ لقطعة الكراون الذهبي، في وجهها نقشت صليباً معقوفاً يحيط به عدد من الكاروبيم وعلى الظهر منها نقشت شعار الدوق.

بعد فراغي من هذه المسكوكات رجوت سموّه أن يقرّر لي مرتباً وأن يسند اليّ منصباً في دار الضرب إن كان راضياً عَمّا قمتُ به فأجابني بكلّ لطف إنه راض تمام الرضى وإنه سيرتب ذلك. وكان حديثنا يجري في مستودع سلاحه، وهو يتفحص بندقية صغيرة نفيسة أرسلتْ إليه من المانيا. ولما لاحظ إني أديم النظر فيها متمعناً. ناولني قطعة السلاح البديعة هذه قائلاً أنه يدري جيداً كم تهفوّ نفسي الى أمثالها. وإنه على سبيل العربون لما وعدني به، يخيرّني الآن في إنتقاء أي قطعة سلاح تعجبني من مستودعه هذا. بإستثناء هذه البندقية، مردفاً أن في مستودعه من قطع السلاح مايفوقها جمالاً ويضاهيها صنعةً. فقبلت هديته وشكرتهُ. وعندما لاحظني أجيل بصري في القاعة. أمر آمر المستودع وإسمه (پريتينو دا لوكا Pretino da Lucca) بأن يعطيني أي قطعة أختارها. وبعد بضع كلمات ودٍّ ومجاملة إنصرف وبقيت لأختار أفضل وأجمل بندقية رأيتها أو ملكتُها وحملتها مع الى منزلي.

وبعد يومين جئت الى سموّه بموديلات صغيرة لبعض القطع الذهبية الفنية التي أمرني بصنعها وكان ينوي إهدائها الى زوجه التي لم تزل آنذاك في ناپُلي[١٨٧]. فسألت منه مَرّة أخرى أن يستعجل في إتخاذ التدابير حول ما وعدني به. إلاّ أنه سموّه قال انه يريد أولاً أن أصنع له قالباً لصورة دقيقة له. مثل تلك التي صنعتها للپاپا كليمنت. فبدأت الصورة بالشمع وأوصى بأن يسمح لي بالدخول عليه في أية ساعة أريدها للعمل بها. ولما أدركت أن العمل سيأخذ مني كثيراً من الوقت أرسلت أستقدم (پييترو پاگولو Pietro Pagolo) من مونتي ريتوندو (Monte Ritondo) بالقرب من روما. وكنت قد ضممته إليّ في روما منذ صباه. لما علمتُ إنه كان يشتغل عند الصائغ (برناردو ناچيو Bernardo Naccio) الذي لم يحسن معاملته فأخذته منه ودرّبته تدريباً جيداً على كيفية سكّ النقود بالقوالب. في تلك الأثناء كنت منهمكاً بصورة الدوق وكثيراً ما كنت أجده مستسلماً الى غفوةٍ بعد الغداء. مع صفيّه لورنزو[١٨٨] ذاك الذي إغتاله فيما بعد. كنت أستغرب كيف يضع الدوق ثقته في مثل هذا الرجل.

وإتفق أن أوتاڤيو دي مديتشي[١٨٩] الذي يهيمن على كلّ كبيرة وصغيرة من الشؤون في فلورنسا، كان يريد أن يقدّم المدير الفنّي لدار الضرب العجوز (باستيانو جنيّني Bastino Cennini) خلافاً لرغبة الدوق. وكان هذا صانعاً من الطراز القديم لايمتاز ولو بالقليل من المهارة. وفي أثناء سكّ الكراونات

(١٨٧) هي مرگريت أميرة النمسا والأبنة غير الشرعية للإمبراطور شارلكان خطبت لألساندرو في ١٥٣٠ وتم الزواج – ١٥٣٦ في ناپُلي. وكان عمرها ١٤ عاماً عندما جاءت فلورنسا بعد أشهر قليلة من الزواج.

(١٨٨) جاء ذكر ذلك بالتفصيل في أول حواشي الكتاب إلاّ أن چلليني في الصفحات التالية من مذكراته يذكر سبباً آخر لقيام لورنزو بإغتيال قريبه.

(١٨٩) يمت الى الدوق بقرابة عصبية بعيدة. ولم ينسل من ظهر كوزيمو الملقب Paten Patriae.

خلط بين أدواتي وأدواته الساذجة الخرقاء. فشكوت الأمر للدوق وعندما أدرك إني محقّ إنزعج كثيراً وقال:

– إذهب الى أوتاڤيودي مديتشي وأعلمه بما وقع.

فقصدته حالاً وبيّنت له التلف الذي أصاب عملتي من إجراء ذلك. فأجاب بما يتوقع من الحمير أمثاله:

– نحن نريدها هكذا.

فأجبت: هذا ليس بالشكل الذي يجب أن تكون وهو أمرٌ غير معقول وغير منصفٍ.

فقال:

– وإذا كانت هذه رغبة الدوق؟

أجبت:

– إنها لن تسرّني أيضاً وأنا لا أقبل بهذا.

وأمرني بالخروج من عنده قائلاً "فلتبتلعها وإن إختنقت بها!"

عدت الى الدوق وأبلغتُه بفحوى المشادة الخشنة بيني وبين أوتاڤيو. ورجوت من سموّه أن لايدع قطعة النقد الجميلة التي عملتها له تشوّه بهذه الصورة ثم أستأذنته بالسفر.

فقال الدوق:

– لقد أشتّط أوتاڤيو كثيراً. وسأقوم بإصلاح الأمر بالشكل الذي تريد لأن التأثير يشملني أيضاً.

في عين اليوم وكان يوم خميس – وصلني من روما كتاب أمان غير محددّ صادر من الپاپا. ومع أمرٍ يوجب عليّ أن أسافر في الحال الى روما لأُمنح العفو الذي سيتمّ في عيد سيدتنا العذراء في أواسط آب كيما تسقط عني نهائياً تهمة القتل . فانطلقت لمواجهة الدوق، فقيل أنه راقدٌ في فراشه بعد ليلة حمراء ماجنة. وفي غضون ساعتين فقط أتممت وضع اللمسات الأخيرة على الصورة الشمعيّة ولما أطلعته عليها وهي كاملة إغتبط كثيراً. ثم اني عرضت عليه (كتاب الأمان) الذي أمر الپاپا بإرساله اليَّ وعقّبت على هذا قولى إن قداسته قد إستدعاني لأقوم ببعض الأشغال له. وبهذا سأحتل مكانتي في مدينة روما الرفيعة. وسأقوم في عين الوقت بإكمال ميدالتيه.

فأجاب الدوق وهو شبه مستاء:

– بنڤنوتو! أنجز ما يسرّني وإبق حيث أنت الآن. سأخصص لك مرتباً وأسند إليك الوظيفة التي طلبتها في دار الضرب، وسأعمل لأجلك أكثر بكثير مما تريد وتأمل لأنك لم تسأل إلاّ المعقول والممكن. ناشدتك الله من سينظر في أمر القوالب الجميلة التي عملتها لي؟

فأجبت:

– مولاي! لقد إحتطتُ لكلّ شيء. فعندي هنا واحد من تلاميذي، وهو فتى روماني تعبت في تعليمه وسيخدم سموّك خدمة ممتازة الى حين عودتي بميداليتك كاملةً، مستعداً لخدمتك أبداً. في روما لديّ دكان فيه صناع وأعماله رائجة جداً. إلاّ إني بعد أن أحصل على العفو سأترك كل أعمالي فيها بعهدة تلميذ لي هناك وسأعود بإجازة سموك الكريمة.

لم يكن معنا في هذه المقابلة غير (لورنزو دي مديتشي). الذي ذكرته آنفاً. فأوما إليه الدوق عدة مرات بأن يحثني على البقاء. إلاّ ان كلّ ما قاله هذا لي هو:

- بنڤنوتو! خير لك أن تبقى هنا.

وعندما قلت أني مصمم على إستعادة مكانتي في روما مهما حصل، سكت ولم ينطق بشيء وظلّ واقفاً يركز إنظاره في الدوق بشكل ينذر بالشرّ.

وبعد أن أكملتُ النموذج الشمعي وضعته في صندوق واقفلته وقلت للدوق:

- مولاي لا حاجة بك الى القلق من جانبي، فسأصنع لك ميدالية أجمل بكثير من تلك التي صنعتها للپاپا كليمنت. وهذا طبيعيّ وبديهيّ فتلك أول ميدالية حاولتها. والسيد لورنزو هنا الذي عرفته غزير المعرفة والذكاء سيقوم بعمل تصميم لظهرها جدير بسموّك.

فأسرع لورنزو يجيب:

- كلّ ما يشغل فكري هو كيف سأمدّك بظهرٍ جديرٍ بسموّه![١٩٠]

فأرتسمت إبتسامة ساخرة على وجه الدوق وتطلع الى لورنزو ثم قال:

- لورنزو! عليك أن تتدبّر له ظهراً للميدالية وعليه أن ينجزه هنا ولايغادر فلورنسا.

فأجاب لورنزو في الحال:

- سأعمله بأسرع مايمكنني. ولي أملٌ في إنجاز شيء يكون موضع دهشة الدنيا كلّها.

أمّا الدوق الذي كان يعتبره أبله مأفوناً تارةً وجباناً رعديداً تارة أخرى، فقد إنقلب في سريره وأطلق ضحكة إثر قوله هذا. فتركتهما دون أن نتبادل المزيد من المجاملات. ولم يصدّق الدوق بأني سأرحل عن فلورنسا ولذلك لم يفتح الموضوع معي بعد هذا. ولما أُنبئ بأني رحلتُ فعلاً. أرسل أحد خدمه في أعقابي فأدركني في (سيينا) وأعطاني خمسين دوقية من سموّه مع رسالة قال فيها: "خذ هذا المبلغ مع حبيّ وعد اليّ بأسرع مايمكنك. وعن السيد لورنزو أعلمك بأنه يتهيأ لإمدادك بالظهر العجيب للميدالية التي تقوم بصنعها".

تركت (پييترو باگولو) الفتى الروماني الذي ذكرته سابقاً مزوداً بتعليمات كاملة حول كيفية إستعمال القوالب. ولكن العمل كان أدّق وأصعب من أن يصيب فيه نجاحاً كبيراً. وبقيت دائناً لدار الضرب بمبلغ يزيد عن سبعين كراوناً لقاء عمل القوالب.

صحبت في سفرتي الى روما تلك البندقية الجميلة ذات الزند الصوّاني، هدية الدوق وإستخدمتها عدة مرات كمسلاةٍ وتلهية. والواقع اني صنعت الأعاجيب بها.

وبوصولي روما ترجّلت في منزل جيوڤاني گادّي - لأن منزلي الصغير في (سترادا يوليا) لم يكن مهيّاً لإستقبالي. وكنت قد أستودعتُه قبل تركي روما مجموعتي الكبيرة من الأسلحة الجميلة وغير ذلك من مقتنياتي التي كنت أعتزّ بها كثيراً وقررت أن لا أذهب الى الدكان بنفسي بل إستدعيت شريكي (فيليچي) بدل ذلك وطلبت منه أن يرتب منزلي ويهيئه للسكنى بصورة عاجلة.

(١٩٠) يلمّح لورنزو هنا تلميحاً قبيحاً بنية القتل التي كانت تساورهُ منذ زمن.

وفي اليوم التالي ذهبت الى المنزل لإعداد ثيابي وغير ذلك مما أحتاجه وبتّ فيه لأني كنت أنوى أن أحظى بمقابلة البـاپا في اليوم التالي لأقدم شكري على مافعله لي. في ذلك الحين كنت أستخدم خادمين صبيين في المنزل يسكنان فيه. وكان ثمّ غسّالة تسكن تحت الدكان وتقوم بإعداد أشهى المآكل لي.

في تلك الأمسية دعوت عدداً من الأصدقاء لتناول العشاء وبعد أن إستمتعنا ببضع ساعات في أطيب مجلسٍ آويت الى فراشي. ولم يكد الليل ينقضي- لم يبق للفجر غير ساعة - حتى طرق سمعي خبّط عنيف في باب منزلي. ضربة إثر ضربة والواحدة أعنف من الأخرى. فناديت الخادم الأكبر سناً - وهو (چنچيو) الذي رافقني في عملية إستحضار أرواح الجنّ - وأشرت عليه أن يذهب ليرى من هو ذلك المعتوه الذي يخبط الباب بهذه الخشونة في هذه الساعة من الليل. وعلى أثر خروجه أشعلت مصباحاً آخر غير الذي إعتدت إبقائه مضيئاً طول الليل. وعجلّت بإرتداء زردٍ محكم فوق قميصي وإرتديت فوقه بعض الألبسة القديمة إلتقطتها كيفما إتفق. وعاد (چنچيو) وهو يصيح:

- سيديّ العزيز! إنه البارجللّو مع ثلّة من الحرس، وهو يقول أن لم تفتح الباب فوراً فسيحطمّه. إنهم يحملون المشاعل ولا أدري ماذا ؟

قلت:

- أنزل وأخبرهم بأني أرتدي ثيابي ولن ألبث حتى أخرج إليهم.

وتصورت أنها مكيدة دُبّرت لقتلي كتلك التي نسج خيوطها (پيير لويجي) قبلاً. فتسلّحت بخنجر ماضي الحدين ووضعت كتاب الأمان في يدي اليسرى، ثم هرعت الى النافذة الخلفية التي تطل على بعض الحدائق وتطلعت منها فوجدت أكثر من ثلاثين شرطياً في الأسفل. ولم أستحسن محاولة فرارٍ من هذه الجهة من الدار فعدت وسرت نحو الباب يتقدمني الخادمان الصبيّان وقد أمرتهما بفتح الباب عند إشارتي لهما بذلك. وقفت مستعداً متخذاً وضع الدفاع والخنجر في يمناي وكتاب الأمان في يسراي وقلت للصبين:

- والآن لا تخافا، إفتحا الباب.

وبسرعة البرق قفز البارجللو (ڤيتوريو Vittorio) متبوعاً بإثنين الى الداخل لاشك ظنّ إنه سيقبض عليَّ بسهولة وبسرعة. وعندما وجدوا اني متأهب لهم نكصوا على الأعقاب وصاح البارجللو:

- ليس هذا من قبيل المزاح!

وعلى أثر ذلك قذفت إليهم بكتاب الأمان وطلبت منهم مطالعته. ثم صرختُ:

- لن أدعكم تلمسوني. فكيف بإعتقالي؟

أمر البارچللّو بعض رجاله بالتقدم وإلقاء القبض عليَّ. وأن لايهتموا بأمر كتاب الأمان إلاّ فيما بعد. إلا إني دفعت يدي الممسكة بالخنجر الى أمام جواباً على هذا وصحت:

- الله في عون صاحب الحق! إن لم تدعوني وشأني فستقبضون على جثة هامدة.

وإمتلأت الغرفة بهم. وبدا وكأنهم يهمّون بأخذي عنوة وأقتداراً، وأظهرت إستعدادي للنزال.

بالأخير أدرك البارجللّو إني مصمم على ماقلتُ. فبعث يستدعي كاتبه وطلب منه أن يتلو عليه نصّ كتاب الأمان. وتظاهر أثناء ذلك بأنه يهم بالقبض عليّ مرتين أو ثلاثاً إلاّ اني لم أغفل لحظة واحدة. أخيراً عدلوا عن محاولتهم ورموا كتاب الأمان وعادوا من حيث أتوا... بدوني.

عدت الى فراشي وقد بلغ إنفعالي حَدّاً أطار النوم من عيني وبقيت مؤرقاً حتى الصباح وقررت أن أفصد عِرْقاً حالما تبدو تباشيره، إلاّ أني رأيت قبل ذلك أن أستطلع رأي (چيوڤاني گادّي) فأشار على بمراجعة طبيب من معارفه. وكان أوّل سؤال طرحه هذا عليّ هو هل استولى عليّ الخوف؟ ألا تصوّر لنفسك أي نوع من الأطباء هذا ليسألني هل أستولى عليّ الخوف بعد أن وصفت له بتفصيل أحداث الليلة المرعبة التي مرت بي! لم يكن أكثر من مشعبذ سخيف دائم الضحك على التوافه وبدون داعٍ. وصف لي بتكشيرة ضاحكة أن أشرب قارورة من الخمر اليونانية. وأريح فكري وأقويّ من معنوياتي ولا أدع للخوف سبيلاً اليّ:

فقال له السيد جيوڤاني:

– أنت نفسك كنت ستصعق رعباً يادكتور؛ حتى لو كانت بُنيتك مصبوبة من معدن البرونز أو الرخام فما بالك برجل من لحمٍ ودم؟

فأجاب الدّجال قائلاً:

– نحن ياسيديّ العزيز من طينة مختلفة. ولم نخلق وكلّنا أشباه. وهذا الرجل ليس برونزاً ولا رخاماً لكنه صُبّ من الحديد.

ثم وضع أصابعه على نبضي. وضحك ضحكته البليدة الخرقاء وأضاف يقول:

– ضع يدك هنا. إنه ليس بنبض إنسان بل نبض أسدٍ أو تنينّ!

كان نبضي في الواقع متسارعاً عنيفاً. وقد يكون بشكل لم يقرأ عنه هذا الطبيب في جالينوس وإبقراط .[١٩١] ولذا أدركت أيّ درجة من سوء الحال بلغتُ إلاّ اني خوفاً من انتكاسة، تماسكت وتظاهرت بالنشاط وطيب المزاج. وفي أثناء ذلك أمر (گادي) بإحضار الطعام وجلسنا جميعاً لتناوله. وكان معنا فضلاً عن (جيوڤاني گادي) كلّ من (لودوڤيكو دا فانو) و (أنطونيو اللكريتّي) و (جيوڤاني گريكو) وكلهم من رجال العلم وجهابذته. فضلاً عن فتى في مقتبل العمر يدعى (آنيبال كارو) الذي إمتاز بوسامة وَحدّة ذكاءٍ وجراءة. وكان كلّ الحديث أثناء الغداء يدور حول شجاعتي. وحملوا خادمي الصغير (چنچيو) على رواية القصة مجدداً وكان صبيّاً بهيّ الطلعة خفيف الروح سريع البديهة فمثّل حركاتي وسكناتي وكيف تأهبت للنزال بأدق تمثيل مردداً عن الكلمات التي قلتها وذكرني بتفاصيل كنت قد نسيتها وكرروا سؤالهم هل أدركه خوف هو نفسه؟ فأجابهم لا وعليهم أن يطرحوا السؤال على سيّدة هل أدركه خوفٌ. ذلك لأنه كان يشعر بنفس شعوري.

(١٩١) Galen (١٣٠–٢٠٠) طبيب وفيلسوف من برگاموم. كتب عدة رسائل وكتب في الطب والتشريح والعلاج. وأعتمده أطباء القرون الوسطى مرجعاً. الى جانب سلفه ابيوقراط اليوناني (٤٦٠–٣٧٧ ق.م) الذي يعتبر أبا الطب الحديث. لوضعه هذه الصناعة على أسس علميّة.

بدأت أضيق ذرعاً بهذه الثرثرة. وشعرت بإنفعالٍ شديد فنهضت مبدياً رغبتي في الذهاب الى السوق لشراء ثياب جديدة وحرير أزرق لي ولچنچيو. حتى نستعدّ للإنضمام الى الموكب الذي سيسير يومُ العيد بعد أربعة أيام. وقلت لهم أيضاً إني قررت أن يحمل (چنچيو) أثناء المسيرة مشعلاً أبيض منيراً.

بعد مغادرتي مجلسهم ذهبت فابتعت حريراً أزرق وأمرت بتفصيله وخياطته ثياباً. ثم أوصيت بخياطة سترة زرقاء أنيقة وصدار صغير من قماش السرسنيت[١٩٢] وإبتعتُ لـ(چنچيو) صداراً وسترة من الحرير الرقيق بلون أزرق أيضاً. بعد أن فرغت من هذا، ذهبت لرؤية الپاپا فأشار عليّ بمراجعة (السيد اسبروچيو Messer Ambrogio) الذي كان قد تلقى منه تعليمات حول أيصائي بعمل صحن كبير من الذهب.

وجدتُ (أمبروچيو) وتبيّن لي أنه كان مطلّعاً على تفاصيل حادث البارجللو وإنه كان متآمراً مع خصومي وقد دبرّ أمر إستدعائي الى روما. وإنه أشبع البارجللو لوماً وتأنيباً لأنه لم يعتقلني. وعلمت أيضاً أن البارجللو إعتذر محتجاً بأنه وقف مكتوف اليدين أمام (كتاب الأمان) المدون بمثل هذه الصيغة. وبدأ (أمبروچيو) يبحث معي في التعليمات التي أصدرها الپاپا بشأن مهمتي وطلب منيّ تهيئة التصميم في حين أنه سينظر في تزويدي بكلّ ما أحتاج. وعند حلول (عيد العذراء) قمت بزيارة للپاپا مرة أُخرى ولما كانت العادة المتبعة هي أن يسلّم المرشحون للعفو أنفسهم للسلطة ويوضعوا في السجن، فقد بيّنتُ للپاپا بأني لاأرغب في أن أُلقى في السجن ورجوت منه أن يدعني طليقاً. غير إنه أجاب: هذه هي عادة متبعة وعليّ أن أطبقها. فما كان منيّ الاّ أن جثوت على ركبتيّ ثانيةً شاكراً له (كتاب الأمان) الذي أصدره لي وقلت إني لأرغب في العودة الى فلورنسا لأخدم دوقها الذي ينتظرني بفارغ صبرٍ. فإستدار الپاپا الى جهةٍ بعد سماعه قولي وأمر واحداً من رجال حاشيته الموثوقين بقوله:

– فلينل بنڤنوتو العفو دون أيداعه السجن. ولتتأكدوا من تنظيم جواز مروره وفق الأصول.

بعد أن كُتبتْ الوثيقة وقعّها الپاپا وتمّ تسجيلها في الكاپيتول[١٩٣] وفي يوم العيد شاركت في الموكب الإحتفالي بأعظم مايمكن من التشريف سائراً بين إثنين من النبلاء ونلت العفو الكامل.

بعد أربعة أيامٍ من هذا هاجمتني حمّى خبيثة ووجدت نفسي أرتجف برداً قارساً فلازمت الفراش حالاً وأنا موقن تماماً بدنّو ساعتي الأخيرة، وإستدعيت خيرة أطباء روما ومنهم (فرانشسكو نورچيا F. Norcia) وهو شيخ طاعنٌ في السنّ، يتمتع بأفضل سمعة في المدينة. شرحت لهولاء الأطباء ما كنت أعتقده سبباً لمرضي. وأضفت اني رغبتُ في بداية المرض أن الجأ الى الفصد وإخراج بعض الدم، لكن أُشير على بالاّ أعمد الى ذلك. ثم إني رجوتهم أن يفصدوني حالاً إن لم يكن الوقت قد فات. ولكن الأستاذ فرانشسكو أجاب: لو تمّ الفَصد في ذلك الوقت لشفيتُ تماماً. أمّا الآن فلا فائدة منه. وإنهم

(١٩٢) قماش من النسيج الحريري الدقيق، يُجلب من الشرق. واسمه يدل عليه فكلمة سراسين هي تصحيف من (شرقيين)

(١٩٣) دار الحكومة رفي روما.

سيلجأون الآن الى وسائل علاج أخرى.

وبداؤا في تطبيبي، بكلّ مايملكون من معارف لكن حالتي كانت تزداد سوءً يوماً بعد يومٍ وبعد أسبوع تردت حالتي إلى الحَدّ الذي أيأس الأطباء منيّ وقالوا فليعط كلّ مايشتهي دون قيد، فهذا مايجلب له الراحة في ساعاته الأخيرة. وأردف (فرانشسكو) يقول:

- طالما فيه نفس يتردد، فلكم أن تستدعوني في أي وقتٍ إذ لا أحد يدري مايمكن أن تصنعه الطبيعة من خوارق لرجل في مثل تركيبه. إن غاب عن الوعي فجرّبوا هذه العلاجات الخمسة فيه، واحداً بعد الآخر بالترتيب وبعدها راجعوني وإني مستعدّ للمجيء في أية ساعة من ساعات الليل. إني لأفضلّ إنقاذه على إنقاذ اي كردينال من روما.

وواظب (السيد چيوڤاني گادي) على عيادتي مرتين أو ثلاثاً في اليوم الواحد. ودأب حال مجيئه على تقليب وتفحصّ أسلحتي الجميلة، من بندقيات صيد أو دروع أو سيوف متمتماً:

- هذه قطعة جميلة الصنع حقاً! وهذه أبدع! وهذه...

وكان هذا شأنه أيضاً مع تصاميمي وغيرها من مقتنياتي الصغيرة، فكاد بذلك يسلمني الى الجنون حتى ضقت به ذرعاً وكان يأتي برفقة المدعو (ماتيو فرانزيسي Mattio Franzesi)[١٩٤]. الذي كان يبدو منزعجاً لأني أصارع الموت بهذه القوة وآخذ منه وقتاً طويلاً، ليس طمعاً في مغنم من موتي بل لأنه كان يرغب في أن يحصل (جيوڤاني) على مايتمناه.

كان شريكي (فيليچي) الذي أتيت الى ذكره قبلاً يلازم فراشي، مقدماً خدماته وباذلاً عونه بتفانٍ لا نظير له. كنت في أقصى حالات الضنى والاضمحلال جسمانياً يصعب جداً إلتقاء إنفاسي. إلاّ اني بقيت صافي الفكر، مستوفز العقل حاضر الذهن كسابق أيام صحتيّ. ومع ذلك ففي ذات يومٍ ظهر بالقرب من سريري رجل مسنّ مرعب الهيئة وحاول أن يسحبني بالقوة الى سفينته الكبيرة. فصرخت مستنجداً بفيليچي وناشدته أن يدفع غائلة هذا اللئيم عنيّ. فهرع اليّ وكان يكنّ لي أعظم الحبّ وصرخ والدموع تسيل من عينيه:

- أخرج أيها الخائن الغدّار، الذي يريد أن يستلب كلّ ما عندي.

فعقّب گادّي الذي إتفق وجوده إنذاك بقوله:

- صاحبنا المسكين يهذي! لم يبق له من الحياة فير ساعات قليلة.

وأضاف (ماتيو):

- لاشكّ وإنه قد قرأ (دانتي)[١٩٥]. والآن وهو مريض جداً. أفلت منه زمام عقله وراح يتجول على غير هدى.

ثم ضحَك وصاح:

- إنصرف عَنّا أيها النذل العجوز ولاتزعج صديقنا بنڤنوتو!

(١٩٤) شاعر معروف محبوب جداً في الأوساط الأدبية آنذاك لخفة روح ولطف نكته.

(١٩٥) يقصد ملحمته الشهيرة الكوميدي الالهية.

كانا يسخران منيّ في الواقع، فالتفتُّ الى (جيوڤاني گادي) وقلت له:

- سيديّ العزيز أوكد لك إني لا أهذي فهناك رجل عجوز فعلاً يعذبّني، إلاّ أن أفضل خدمة يمكنك أن تقدمها لي هي أن تخلصني من هذا الجرذ الصغير الذي يهزأ بمصابي. وإن شرفني سيادتك بزيارة أخرى فلتصطحب السيد أنطونيو الليگرتي أو السيد أنيبال كارو. أو أي واحدٍ من أصحابك الغرّ الميامين ذويّ المواهب وسموّ الذوق الذين لايتصرفون كالوحوش.

وعندها أمر جيوڤاني رفيقه (ماتيو) على سبيل المزاح بأن يغادر المنزل ولايأتي بعد هذا. ولما إستمرّ (ماتيو) في ضحكه وعبثه إنقلب المزاح جداً وآلى (جيوڤاني) على نفسه أن يقطع كل صلةٍ به. ثم أرسل يستدعى اللگريتي ولودوڤيكو إنيبال كارو بدلاً عنه. وقد شعرت براحة تامة عندما إحتوى مجلسنا هؤلاء الرجال الممتازين حتى إني حدثتهم بشكل معقول إلاّ إني كنت أواصل الإلحاح على فليچي بطرد الشيخ العجوز عنيّ. وسألني (لودوڤيكو) عَمّا أراه أو أتخيله بالضبط وطلب مني أن أصفه. وفيما أنا أقوم باعطاء صورة له أمسك العجوز بذراعي وجذبني إليه جذبة عنيفة فصرخت مستنجداً بهم قائلاً أنه يريد القائي في قاربه الرهيب. ثم فقدت الوعي حالاً متخيلاً إني ملقى في بطن القارب فعلاً. وقد أخبروني بعد ذلك إني كنت في نوبةٍ أنتفض وأهتزّ وأسلق جيوڤاني بهجر القول والسباب قائلاً أنه لايأتي إلاّ لسرقتي لا حباً بي. وبهذا السباب وتلك التهم إحمرّ وجهه خجلاً وعاراً. ثم قالوا إني إنقطعت عن الهذيان وخمدت حركتي تماماً فظنّوا إني لفظت آخر أنفاسي. ومكثوا معي أكثر من ساعة حتى بدأ جسمي يتصلّب فحسبوني ميتاً وتركوني. وعند عودتهم الى منزلهم أبلغوا النبأ (ماتيو فرانزيسي) الذي أسرع بالكتابة الى صديقي العزيز (بنيدتّو ڤاركي) في فلورنسا. قائلاً انهم رأوني أوّدع الحياة في الساعة كذا وكذا من الليل. فما كان من هذا العبقري والصديق الصدوق الاّ أن نظم قصيدة رثاء رائعة، أوحاها له نبأ موتي المزعوم وسأثبتها هنا فيما بعد.

مرت ثلاث ساعات بطولها ولم أعد الى وعيي وجرّب بي (فيليچي) كلّ العلاجات التي أوصى بها الطبيب (فرانشسكو) ولما وجد إني لم أفق. هرع الى الطبيب بأسرع ما تنقله قدماه وأنشأ يطرق بابه طرقاً متواصلاً حتى أبعده عن سريره. وطلب منه ضارعاً والدموع تجري على خديه أن يأتي معه الى المنزل حيث كنت جثة هامدة.

فأجاب فرانشسكو بعد سماعه هذا وكان حادّ الطبع:

- ماتراني فاعلاً يابنيّ وماذا يجدي مجيئي الآن؟ إن مات فإني حزين عليه أكثر منك. لكن أتظنّ اني لو جئت معك حاملاً كلّ طبيّ - سأتمكن من إعادة الحياة إليه، بدفع الأنفاس الى دبُره؟

وإذ رأى الفتى البائس يبتعد عنه باكياً رق قلبه وناداه وأعطاه زيتاً ليدهن به صدري ورسغيّ. وأوصاه بأن يقرص أصبع قدميّ ويديّ الصغيرة بشدّةٍ فإن عدت الى رشدي فعليه أن يرسل في إستدعائه حالاً. ففعل (فيليچي) كلّ ما أوصي به إلاّ أن الصبح انبلج تقريباً دون أن تبدو بارقة من الأمل فيّ. فصدرت الأوامر بتفصيل الكفن ونُبّه الغاسل بالإستعداد لغسل الجثة. لكني عدتّ الى نفسي فجأة. وناديت (فيليچي) ليأتي ويطرد عني الشيخ الذي يحاول أيذائي. أراد فيليچي أن

يستدعي الطبيب إلاّ أني طلبت منه البقاء بجانبي بدل ذلك لأن الشيخ يبتعد عنه خائفاً منه على مايظهر. وعندما مسست يد فيليچي رأيت الشيخ يلوذ بالفرار وهو مستشاط غيظاً. فعدت أتوسل به أن يبقى قريباً منيّ.

وبعد برهة أقبل الأستاذ فرانشسكو وقال إنّه قد صمم تصميماً لا رجعة فيه على شفائي مهما كلفّه الأمر! وأنه لم يجد في أي شاب قوة إحتمال كتلك التي أظهرتُها. وكتب وصفةً تتضمن عطوراً ومحاليل ومروّخات ولبائخ وأنواعاً مختلفة أخرى. وأفقت لأجد أكثر من عشرين عَلَقة طبية لاصقة بظهري وشعرت وكأني أُثقب وأُكسَّر وأُسحق. وأجتمع حولي عدد كبير من الأصدقاء ليشهدوا معجزة عودة الحياة اليّ. وكان بينهم نفرٌ عديد من علية القوم. وفي محضرٍ منهم أعلنتُ وصيتيّ فأمرت بأن يعطى(مونالپيراتا) أختي المسكينة في فلورنسا كل ما أملكه من ذهب قليل يناهز ثمانمائة كراون بين عملة فضيّة وذهبية ومصوغات وتبرٍ. أما بقية تركتي وبضمنها سلاحي فقد أوصيت بها الى فيليچي العزيز فضلاً عن أيصائي له بخمسين دوقية ليبتاع بها ثياب حداد. وبسماعه هذا إرتمى عليّ وأحاطني بذراعيه قائلاً أن كلّ مايرغب هو أن أعيش، فقلت:

- إن كانت هذه رغبتك فأمسك بي كما فعلت قبلاً وأمنع عن هذا الشيخ الذي يخشاك.

فداخل الخوف بعض الموجودين حتى كادوا يخرجون عن وعيهم. إذ كانوا على ثقة بأني مالك زمام عقلي الآن وإن كلامي صادر عن صفاءٍ في الذهن لا عن هذيان.

إمتد بي المرض إلاّ أن صحتي أخذت تميل الى التحسنّ وواصل فرانشسكو الطبيب عيادتي بمعدل خمس مرات في اليوم الواحد. إلاّ أن (جيوڤاني) الذي كان يشعر بالخجل إنقطع عن زيارتي تماماً. ووصل زوج أختي (ليپراتا) الى روما قادماً من فلورنسا ليقبض الميراث، إلاّ انه كان في غاية اللطف والطيبة إذ فرح جداً بإبلالي. وقد سررت برؤيته وشعرت براحة نفسية يقصر لساني عن وصفها. وبرهن لي على حبّه الصادق إذ أكّد أنه ماجاء إلاّ ليعنى بي ويتولى تمريضي بنفسه وقد قام بذلك فعلاً عدة أيام وبعد أن أصبح شفائي مؤكداً أعدته الى فلورنسا.

عند سفره دفع لي بمرثية السيد بنديتو ڤاركي التي نظمها أثر سماعه بنبأ موتي وها هي ذي:

(في الموت الكاذب المزعوم لبنڤنوتو چلليني)

أي (ماتيو)[١٩٦]! من سيعزّينا؟ من سيطلب من مآقينا

الكّف عن ذرف الدموع فوق نعشه؟

آه من الحقيقة المرّة. إنه تركنا في هذه الدنيا بعجلة الشباب

ليعرج الى السماء ويتخذها منزلاً. ايه أيتها الروح الصديقة النقية.

ليس في الفن من يباريك. فقد أصبت القدح المعليّ. ولم يبذك منافس وفي هذه الدنيا التي لم تشهد لك نظيراً. يكون خير من فيها أسبق من غيره الى وداعها.

أيتها الرح السامية أنظري إلينا من علاك واضرعي لأجلنا إن كنت

(١٩٦) المخاطب هو ماتيو فرانزيسي الذي كتب للشاعر ينبئه بوفاة چلليني.

تشعرين بحبّ لنا، فنحن أقصر عن إستجلاء الحقيقة من خلال الضباب الذي يحفّ بنا.
أنا لا أبكي سعادتك لكني أبكي سقمي وأنت الآن ومجلسك في السماء
تشخص بإبصارك الى الأله القدير وتراه وجهاً لوجه
ذلك الذي أظهرت أسمى عبقريتك البشرية في تصوير خياله[١٩٧]

كان دائي عُضالاً حتى خيل لي اني لن أبرح الفراش أبداً. ولم يكلّ ذلك الطبيب الفاضل (فرانشسكو نورچيا) ولم يملّ. كلّ يوم يأتيني بعقّار جديدٍ مجاهداً في تقوية هيكلي المنهوك. ومع كل مجهوده هذا بدا وكأن الوهن لا يتطرق الى المرض الذي ابتليت به. وبنتيجة هذا كاد كل الأطباء المعالجون يدركهم اليأس. وتحيروّا فيما يفعلون. كنت أشعر بظمأ قاتلٍ إلا اني أمتنعت عن شرب الماء بناءً على أوامرهم أياماً عدةً. ولم يبرح فيليچي مكانه بقربي وكان جدّ مغتبط لأنه وفق في إنقاذ حياتي. وقلّت مضايقة الشيخ لي وأن كان كان يزورني أحياناً في أحلامي. وفي ذات يوم تركني (فيليچي) لأمر ما بعد أن أوصى أحد خلفنا وخادمة تدعى (بياتريس) بالسهر عليّ. وسألت الخلفة ماذا حَلّ بصبيّ الدكان (چنچيو) ولماذا لا أراه وأنا في حاجة إليه؟ فقال أن الصبيّ أشدّ مرضاً مني وقد أشرف على الموت. وكان (فيليچي) قد أوصاهم بكتمان ذلك عنيّ. فزاد إنفعالي وجاشت نفسي عند سماعي ذلك ثم ناديت الخادمة بياتريس التي كانت من أهل (پستويا) وطلبت منها أن تأتي بالمبردّة البلورية الكبيرة المملؤة بالماء القراح الموضوعة هناك. فركضت إليها حالاً وجاءتني بها وهي ممتلئة حتى الحافة. وأمرتُها أن تدنيها مِن فمي قائلاً إن تركتني أشرب ملء فمي منها فإني سأبتاع لها ثوباً.

كانت هذه الخادمة قد إختلست من المنزل أشياء صغيرة ذات قيمة عندي ولخوفها من إفتضاح أمرها كان يسّرها أن تراني ميتاً. ولذلك جاءتني بالقارورة مرتين وتركني أشرب قدر ما أمكنني من الماء وإحتسيت أكثر من قارورة ثم جذبت الأغطية عليّ وبدأت أنضح عرقاً ورحت في نوم عميق.

بعد ساعة من الزمن عاد (فيليچي) وسأل الخلفة عن حالي فأجابه:

– لا أعلم. جاءته (بياتريس) بتلك القارورة مملؤة ماءً فأفرغ كل ما فيها تقريباً في جوفه. ولا أدري الآن أهو حيّ أو ميّت.

قالوا لي أن (فيليچي) كاد يقع مغشياً عليه من فرط الأسى. وأسرع فتناول عصاً غليظة وراح يضرب الخادمة بجنون وهو يصرخ:

– الويل لك أيتها الغادرة. فقد قتلته؟

فيما كان (فيليچي) يهوى عليها بالضربات الموجعة وهو تعول باكية، كنت أنا مستغرقاً في حلّم. خيل لي إني أرى الشيخ وقد أقبل عليّ بحبال في يده يريد ربطي فيظهر له فيليچي ويصول عليه وبيده بلطة حرب فيفلت الرجل الأثيم منه صارخاً:

(١٩٧) هنا تنويه بتصوير چلليني للذات الإلهية في عروة زنار الپاپا كليمنت. وفي المخطوطة الأصلية للمذكرات تجد هذه القصيدة مذيلةً بتوقيع (ڤاركي).

- أتركني الآن، ولن تراني لمدة طويلة.

في تلك اللحظة إندفعت (بياتريس) الى غرفتي وهي تصرخ بأعلى صوتها. فأيقظتني وهتفتُ:

- دعها وشأنها. فبدلاً من سوء قصدها في عملها هذا، ربّما جاءني منه نفع كبيرُ والآن تعال وساعدني فقد أبتلّ كلّ جسمي بالعرق. ألا أسرع بربك.

هدأ (فيليچي) وأضاء وجهه بشراً. ثم نشّفني وأصلح وضعي. فشعرت بتحسّن كبير جداً. عاهدت نفسي على الشفاء. ولحظ الأستاذ فرانشسكو في بكاء الخادمة وجريان الصبي هنا وهناك والضحكات التي يطلقها (فيليچي). كل هذا حمل الطبيب على الإعتقاد أن شيئاً خلاف العادة قد حصل وكان سبباً في التحسن الذي طرء عليّ. في أثناء ذلك دخل الطبيب الآخر (برناردينو) الذي رفض في البداية أن يعمد الى فصدي وقال فرانشسكو ذلك العالِم المفضال:

- ألا مرحى لقوى الطبيعة. إنها تعرف مانحتاج والأطباء لايعرفون شيئاً .

وأضاف ذلك الطبل الأجوف برناردينو حالاً:

- لو شرب ملء قارورة أخرى لشفي الساعة.

إلاّ أن الأستاذ فرانشسكو الذي كان كبير السنّ والطبيب الواسع المعرفة قال:

- سيكون ذلك مصيبة عظيمة. وآمل من ربيّ أن تحصل لك.

ثم التفت اليّ وقال لي أكان بوسعي أن أشرب أكثر مما شربت. فأجبت بالنفي لأني أطفأت ما أشعر به من الظمأ تماماً. وعندها توجه الى (برناردينو) ليقول:

- أترى كيف أن الطبيعة نالت كفايتها بالضبط لا أكثر ولا أقلّ؟ وبنفس الشكل كانت تطلب حاجتها عندما سألك هذا الشاب أن تجري له عملية فصدٍ. لو عرفت في حينه إنه بحاجة الى شرب قارورتين من الماء ليتحقق له الشفاء فلماذا لم تشر عليه بها. فيكون لك كل الفضل؟

وإنصرف هذا الدجّال وهو يكاد ينشق غيظاً ولم يرني وجههُ مرة أخرى. ثم أشار الأستاذ فرانشسكو بوجوب نقلي من الغرفة التي أنا فيها وبضرورة أخذي الى احد تلال روما. وسمع الكردينال كورنارو بشفائي فأمر بأن أنقل الى واحد من منازله في مرتفعات (كاڤاللو) وفي مساء اليوم نفسه جرى نقلي على كرسيّ بكلّ عناية مدثراً بالأغطية. وما وصلت حتى بدأت أتقيأ ووجد في القيء دودة يكسوها الشعر طولها حوالي خمسة إنجات. وبدت في غاية القبح بشعرها الطويل وببقع مختلفة الألوان مع أخضر وأسود وأحمر وما إليها. فحُفظت لتعرض على الطبيب الذي صاح مشدوها بأنه لم ير مثل هذه قط، وقال لفيليچي:

- اعتن بصديقك (بنڤنوتو) بعد شفائه. ولاتدعه يتعرض إلى أزمة. إذ مع انه نجا فإن أي إنتكاسة أخرى قد تورده حتفه. ها أنت ترى كيف كان مرضه شديداً بحيث لو جئنا له بالإسرار الأخيرة لما ادركناه بها. وأنا واثق الآن بأنه سيعود الى إنجاز أعماله الجميلة بعد قليل من الصبر وبمرور فترة قصيرة من الزمن.

ثم التفت اليّ وأردف قائلاً:

- عزيزي بنڤنوتو، كن معقولاً، ولا تنغمس أو تفرط في تعاطي الملذات. وعندما يتمّ شفاؤك أريد أن تصنع لي تمثالاً للسيدة العذراء بيديك. إذ اني أريد أن أصليّ لها منذ اليوم بسبب حبّي لك.

فوعدته بذلك ثم سألته ألا تؤهلني حالتي للسفر الى فلورنسا؟ فقال يجب عليّ أن انتظر حتى تزاد صحتي تحسّنا. وعندئذ سنرى فعل الطبيعة فيك.

بعد مرور أسبوع لم يطرء على صحتي تحسّن كبير. حتى ضقت ذرعاً بنفسي فقد تحملت العذاب الرهيب أكثر من خمسين يوماً.

لذلك صحّ عزمي على السفرّ وتأهبت لذلك فإنطلقت الى فلورنسا انا وعزيزي (فيليچي) بمحفّتين. ولم أكتب لأحدٍ بنيتيّ فلما وصلت منزل أختي أخذت تضحك وتبكي في آن واحدٍ.

وتقاطر عدد كبير من الأصدقاء لزيارتي يوم وصولي، وفي مقدمتهم (پييرو لاندي) أعزّ صديق عندي وأقربهم الى نفسي في هذه الدنيا.

وفي اليوم التالي حظيت بزيارة صديق آخر وهو (نيقولو دا مونتي أگوتو). وكان قد سمع الدوق يقول:

- كان خيراً لبنڤنوتو لو قضى نحبه. فقد جاء هنا ليضع حبل المشنقة في عنقه. فلن أغتفر له مافعل أبداً.

وبعد أن أنذرني نيقولو أردف يقول بلهجة اليائس:

- قل لي ما الذي دفعك الى المجيء يابنڤنوتو؟ الا تدري كم أحفظت الدوق عليك بإستصغارك له؟ وبأذني هذه سمعتُه يقول مقسماً بأنك تضع الحبل في عنقك.

فأجبت:

- أي نيقولو! أرجوان تذكّر سموّه بأن الپاپا كليمنت أراد مرّةً أن يفعل عين الشيء بي وكان مخطئاً بقدر ماكان الدوق مخطئاً. قل له بأني أحتاج الى العناية والتمريض وأن يدعني أستردّ عافيتي. وعند ذلك سأبرهن له أنه لن يجد مثلي خادماً مخلصاً طول حياته. لابدّ وأن عدّواً حسوداً أوغر صدره عليّ، إلا فلينتظر حتى اتعافى وعندئذ سأكون في موقف أستطيع به تقديم حسابٍ عن نفسي سيصيبه بالدهشة.

فعلاً كانت هذه الوقيعة من عمل وسعي الأريزي[١٩٨] جورجيو ڤاساري ربّما ردّاً للجميل الذي صنعته له. فقد إستضفته في روما ودفعت عنه مصاريفه ولأقل الحقيقة إنه قلبَ منزلي رأساً على عقب. ذلك لأنه كان يشكو حكّة جلديّة مزمنة كاد لها يمزّق لحمه من كثرة الهرش المستمر بيديه. كان قد شاطر الفراش المدعو (مانّو Manno) أحد صُنّاعي وهو إنسان أنيس رقيق الطبع. فراحَ يسلخ جلد ساقي (مانو) ظانّا أنّه يهرش ساقيه بمخالبه الصغيرة القذرة التي لم يكن يقلّمها قطّ.

فترك (مانو) الخدمة لدي مقسماً بأنه سيقتله. إلاّ أني سويّت الأمور فيما بينهما وصالحتهما. ثم إني سعيت له فظفرت له بمنصب عند الكردينال دي مديتشي. ولم أتوان قطّ عن مساعدته في هذا

(١٩٨) نسبة الى (أريزّو Arizzo) وهي بلدة تبعد حوالي ٨٥ كيلومتراً عن فلورنسا وتقع الى الجنوب الشرقي منها.

الأمر أو ذاك[١٩٩].

وبمقابل كلّ هذا سعى بي الى الدوق قائلاً إني تخرصت بكلام السوء على سموه، وفخرت بأني سأكون أوّل من يعلو أسوار فلورنسا مع مبعدي الدوق وخصومه. وبحسب ما بلغني فيما بعد أن (أوتاڤيو دي مديتشي) الذي أراد أن يصيب ثأره منيّ بعد غضب الدوق عليه بسبب سك العملة وسفري من فلورنسا، قام بتلقين (جيورجيو ڤاساري) كل هذه العبارات ونقلها هذا الى الدوق.

ولما كنت بريئاً من هذا تهمة الغدر التي ألصقوها بي لم أشعر بأي قدر من الخوف وعالجني الطبيب القدير (فرانشسكو دا مونتيڤاركي F. da Montevarchi) بكل حذق. جاءني به صديقي العزيز (لوكا مارتيني) الذي كان يلازمني أغلب ساعات النهار.

أرسلت صديقي المخلص (فيليچي) الى روما للإشراف على الأعمال هناك. وبعد أسبوعين عندما وجدت نفسي قادراً على رفع رأسي عن المخدّة قليلاً. وإن لم أكن أقوى على الوقوف. رتبتُ أن أُحمل بمحفة الى قصر مديتشي ووُضعت في الشرفة الصغيرة العليا وتركت هناك منتظراً مرور الدوق. وأقبل عددٌ لايستهان به من موظفي القصر أصدقائي يجاذبونني أطراف الحديث. وقد أدركهم العجب لإصراري على تكبدّ مشقة المجيء وأنا في مثل هذه الحالة من السقم والهزال. وقالوا كان عليّ الإنتظار حتى تنصلح حالي ثم أزور الدوق. وتجمع عدد كبير من الناس يتطلعون اليّ كأنما يتطلعون الى معجزة لا لأنهم سمعوا بموتي فحسب، بل لأني كنت في ذلك الوقت أبدو كجثة ميت.

وبمحضر منهم جميعاً شرحت كيف أنَّ أحد لأنذال الأشرار أبلغ سموّ الدوق بأني فخرت بقولي: سأكون أول من يعلو الأسوار على سموّه. وإني تطاولت عليه بهجر القول أيضاً. وبنتيجة ذلك صارت حياتي وموتي سيّان عندي حتى أبرئ نفسي من هذه التهمة الشنعاء وأتوصل الى معرفة ذاك الواشي البذئ اللسان الذي إفترى عليّ بهذه الأكذوبة. وكان بين الحضور الذين أصغوا الى أقوالي عدد كبير من وجهاء المدينة وأشرافها فعبرّوا عن شديد عطفهم وعقب أحدهم بشيء وعلقّ ثانٍ بشيء آخر. وكررت أني لن أبرح هذه البقعة حتى أكتشف هوية الشخص الذي إتهمني. وعندها شقّ خياط الدوق الأستاذ (أوگسطينو) الجمع الملتف حولي من السادة.

وإقترب منيّ قائلاً:

– إن كان هذا كلّ ماتريد معرفته. فبإمكاني إرشادك إليه في هذه الدقيقة.

وفي تلك اللحظة بالذات شاءت الصدف أن يمرّ الرسام (جيورجيو)، فهتف (أوگسطينو):

– هذا هو الرجل الذي وشى بكَ. وأنت أعرف الناس بصحة التهمة أو زيفها.

ولعجزي عن الحركة سألت (جيورجيو) بأشد وأعنف لهجة: أصحيح ما قيل عنه؟ فأنكر قائلاً إنه ليس بصحيح وإنه لم يقل شيئاً من هذا لقبيل، فردّ عليه (أوگسطينو) قائلاً:

(١٩٩) جيورجيو ڤاساري (١٥١٢–١٥٧٤) رسّام وكاتب سير الفنانين الأيطاليين وبسفره الجليل هذا أشتهر. كانت كتابته عن چلليني (وإن لم يفرد له فصلاً خاصاً) منصفة لطيفة رغم الخلاف بينهما. كذلك ذكر الصائغ (مانو) بالخير وهو عين من جاء ذكره في هذه الحكاية الغريبة. (قمنا بنقل كثير من التعاريف بالفنانين الوارد ذكرهم هنا من كتابه)

- قبحك الله ياطير المشنقة! أما تدرك بأني متأكد من كونك القائل؟

فأسرع (جيورجيو) موليّاً دبراً وهو يردّد قائلاً "كلاّ إني لم أقدم على شيء من هذا" وبعد قليل مرّ الدوق فرُفعت قليلاً حتى يلحظني سموّه فتوقفّ. وعندما أعلمته إني جئته بهذا الوضع لتبرئة نفسي. فبحلق بي وأظهر عجبه من بقائي في قيد الحياة. ثم أوصاني أن أكون كما كنت رجلاً مستقيماً وأن أعمل على إستعادة صحتي.

بعد عودتي الى المنزل لحق بي (نيقولو دا مونتي أگوتو) وكان يبحث عنيّ ليقول لي إني نجوت من أشدّ عاصفة رآها، وهو يكاد لايصدق بعد أن رأى مصيري المحزن يكتب بحبرٍ غير قابل الزوال. والآن وبعد زوال الخطر، ما عليّ الاّ أن أعنى بصحتي حتى إذا إستردتها عليّ أن أسرع بالرحيل عن فلورنسا لأني مهددّ من جهة ما وهناك رجل معّين قادر على أيقاع أعظم الأذى بي وأردف يقول: يجب عليك أن تتخذ الحيطة التامّة لنفسك. ثم أنتقل فجأة ليسألني:

- أي نوعٍ من الإهانة الحقتَ بذلك الوغد الكبير (أوتاڤيو دي مديتشي)؟

فأجبت: لم أسيء إليه قطّ غير إنه أساء اليّ كثيراً. وقصصت علية تفاصيل ما وقع لي معه في دار الضرب.

فقال:

- أرحل بأسرع ما يمكنك، لكن لاتهتمّ فستنال ثأرك بأسرع ماتظنّ.

فركزت إهتمامي بإستعادة قواي. وزودت (پييترو باگولو) بتعليمات حول سكّ العملة ثم بارحت فلورنسا قاصداً روما دون كلمة اقولها للدوق أو غيره.

قضيت في روما ردحاً من الوقت اروّح فيه عن نفسي مع الأصدقاء، ثم إستأنفتُ عملي في ميدالية الدوق. وأكملتُ الرأس في أيام معدودة وطبعته على الفولاذ فكان أدق عمل أنجزته من هذا النوع. وكان يكثر التردد الى دكاني (مرة واحدة يومياً على الأقل) شخصٌ مغفّل كثير الحمق يدعى (فرانشسكو سوديريني)[٢٠٠] وشاهد مرة أو مرتين ما بيدي من عملٍ فأبدى ملاحظته التالية:

- ما أقساك أيها الرجل إذ تريد تخليد هذا الطاغية الوحش الضّاري. وبما أنك لم تصنع شيئاً من قبل بمثل هذا الجمال. فلابدّ وأن تكون عدوّنا اللدود بقدر ما أنت صديقهم الحميم، مع أنه هو والپاپا أرادا شنقك مرتين دون سببٍ. ذلكم هو فعل الأب والإبن وعليك أن تنتظر ما سيحل بك على يد روح القدس.

والشيء بالشيء يذكر إن الإعتقاد السائد أن الدوق الساندرو هو إبن للپاپا كليمنت[٢٠١] وحلف (فرانشسكو) أيضاً إنه لو إستطاع لو استطاع لسرق قوالب الميدالية.

فأجبت: حسناً فعل بمصارحتي. فسأعمل جهدي على أن لايقع نظره عليها بعد الآن.

(٢٠٠) من خصوم آل مديتشي. نفي الى سيللو في العام ١٥٣٠.

(٢٠١) هذا هو الشائع. لكن البعض يقول أن أباه هو لورنزو دوق أوربينو.

ثم أعلمت ذوي الشأن في فلورنسا بأن يبلغ لورنزو بوجوب إرسال تصميم ظهر الميدالية. فأجاب (نيقولو دي مونتي أگوتو) الذي كتبتُ له بأنه سأل ذلك المتفلسف السوداوي المجنون (لورنزو)، فكان جوابه إنه لم يفكر بأيّ شيء غير هذا فهو لايبارح خياله ليلاً أو نهاراً وإنه سينجزه حالما يكون قادراً على ذلك. وأضاف نيقولو ينصحني بالاّ أعتمد على هذا الهُراء وأن أتولى عمل تصميم بنفسي. وبعد إكماله أقوم بحمله الى الدوق بلا وجل أو تردد وسيعود عليّ هذا بالنفع الكبير.

بعد أن صنعت ما إعتقدته تصميماً مناسباً للظهر، تقدمت في العمل بما أمكنني من الدقة والعناية. ولم أكن بعد قد أبللت إبلالاً تاماً من مرضي، لذلك كنت أتلهّى بالقيام بجولات صيدٍ مع عزيزي (فيليچي) وكان بقدر ما يتعلق الأمر بمساعدتي في فنيّ، شخصاً لا أمل فيه وقضية ميئوس منها. لكن لما كان يُرى دائماً في صحبتي ليلاً ونهاراً فقد حسبه الجميع بأنه صانع حاذق!

كان إنساناً خفيف الظلّ طيبّ المعشر الى أقصى حدّ ولذلك كنّا نستوفي حظّنا من الضحك على السمعة العظيمة التي نالها. وبما أنه كان يدعى (Felice) أبن كواديني (Gaudagni) فقد إعتاد أن يمزح بقوله "كنت سأسميّ نفسي (فيليچي كوادانيي - پوكو) لو لم تكسبني مثل هذه السمعة العظيمة التي مكنتني من أن أطلق على نفسي (فيليچي كواداني - أسّاي)[٢٠٢] لو لم تكسبني هذه السمعة العظيمة. فقلت له هناك طريقان للكسب: أولاهما أن يكسب المرء ليدّخر لنفسه وثانيهما هي أن يكسب المرء ليدّخر للآخرين. وقد مدحته لأنه إختار الثانية وفضلّها على الأولى بكثير. ذلك لما ادخره لي من جهد أنقذ به حياتي. كان هذا ديدننا دائماً نتبادل الحديث الطليّ فيما بيننا. وأذكر بصورة خاصة يوماً ما في حدود عيد الغطاس[٢٠٣] حيث كنا معاً بالقرب من لامالیانا La Magliana. والساعة تقترب من الليل. في ذلك اليوم اصطدت ببندقتي عدداً كبيراً من البّط والاوزّ، وعندها هممت باتخاذ القرار بالعودة وبدأنا نسلك الطريق الى روما. ناديت كلبي (باروگو) فلم أجده أمامي. فالويت العنان لأرى هذا الحيوان الحسن التدريب يرقب سرباً من الأوز حَطّ لتوّه في ساقية. فترجللت في الحال وحشوت بندقيتي وأطلقت النار من مسافة بعيدة وأصبت إثنين برصاصة واحدة. كنت أكره إستعمال أكثر من حشوة رصاص واحدة، وكان بإمكاني الإطلاق من مسافة ثلاثمائة قدم تقريباً لأصيب هدفي في أغلب الأحيان. وطريقتي هي الوسيلة الوحيدة للتأكد من النجاح. على كلٍّ كانت واحدة من الوزتين مشرفة على الموت. والأخرى جريحة وهي تحاول الطيران فأسرع الكلب الى الأولى وجاء بها. ولمحت الثانية تسقط في الساقية فوثبت إليها معتمداً على حذاء الركوب الطويل، ومددت قدماً فغاصت في الطين وإمتلأت رجلي بالماء رغم إني أمسكت بالأوزة. ثم رفعت رجلى الى أعلى وأفرغت منها الماء وركبنا عائدين الى روما بأسرع ما أمكننا. كان البرد قارصاً حتى إني أحسست بساقي

(٢٠٢) كلمة Gaudagni بالأيطالية تعني ربح أو كسب. وعليه يكون المعنى المقصود بالتركيب Gaudagni Poco =ربح ضيئل. وتركيب Gaudagni Assai = ربح كبير.

(٢٠٣) ويقع في السادس من كانون الثاني. وهو يوم ذكرى غطاس السيد المسيح ومجيء المجوس إليه. والتسمية يختلف بإختلاف بلاد النصرانية.

وهي تكاد تتجمدّ فناديت (فيليچي) بقولي:
- فلنتدبر أمراً لساقي. إذ لا طاقة لي بتحمّل هذا.
فترجّل (فيليچي) وبشهامته المعهودة ومن دون أن ينطق بكلمة واحدة، راح يجمع حطباً وأعشاباً ليوقد ناراً. وفيما أنا بإنتظاره دسست يدي في صدر الأوزة فوجدته دافئاً. وبملاحظتي هذا أوقفته . وبادرت الى حشو جزمتي بريش الأوزة. فشعرت فوراً براحة عظيمة. وإنتعشت نفسي.
امتطينا حيواتينا وغذذنا السير الى روما. وكان الليل قد أدركنا وصعدنا نشزاً في الأرض وأرسلنا أبصارنا الى جهة فلورنسا. وأطلقنا معاً هتاف عجب ودهشة:
- يا إله السماء! أي شيء هائل هذا الذي نراه فوق أفق فلورنسا؟
كان ما رأيناه يشبه شعلة نارٍ عظيمة جداً. نوراً ساطعاً في السماء. قلت لفيليچي:
- سنسمع غداً ولاشك بحدث عظيم وقع في فلورنسا.
كان الظلام حالكاً عندما احتوتنا أسوار روما واقتربنا من الضفة والمنزل وكان حصاني ينطلق بي بسرعة الريح. ولذلك لم نر لا أنا ولا الحصان أكداس الأنقاض والجص والآجر المكسّر التي كوّمت في وسط الشارع. فأصطدم حيواني بها صدمةً عنيفة وعثر ثم كبابي ورأسه بين أماميتيه. وكان فضلٌ من الله أن خرجت سليماً لم أُصب بخدش. وأسرع الجيران يحملون المشاعل بضوضاء وجلبة. إلاّ أني أنتصبت واقفاً وواصلت السير من دون ركوب حتى منزلي وأنا أضحك متعجباً كيف سلمت بعد أن كاد يدقّ عنقي. ووجدت بعض الأصدقاء في داري فجلسنا نتناول العشاء ورحت أقصّ عليهم حوادث اليوم ونجاتي وعن العلامة المشؤومة من النور التي رأيناها. فراحوا يتساءلون:
- ماالذي ستسفر عنه هذه العلامة غداً؟
فقلت:
- لاشك إنها تشير الى حادث جلل وقع في فلورنسا.
إنتهينا من العشاء مستأنسين بعضنا ببعض. وفي اليوم التالي وردت الأنباء في ساعة متأخرة بمقتل الدوق ألساندرو. وكان من أثر ذلك أن عدداً كبيراً من معارفي أقبلوا عليّ يقولون:
- لقد كنت مصيباً حقاً حول وقوع حادث عظيم في فلورنسا.
وفي وسط الجلبة أقبل (فرانشسكو سودريني) وهو يترنح فوق بغل هرم متثاقل الخطى وهو كالمجنون يضحك ويقهقه حتى ليكاد فمه ينشق. وناداني بصوت مرتفع قائلاً:
- هذا هو ظهر ميدالية ذاك الطاغية النذل الذي وعدك به لورنزو دي مديتشي.
ثم أردف يقول:
- أنت تريد تخليد الدوقات. ونحن لانريد دوقاً بعد الآن.
ثم شرع يسخر منيّ كأني رئيس الأحزاب التي تتولى نصب الدوقات. وجاءنا أيضاً المدعو (باچيو بتيّني Baccio Bettini) برأسه المتورم الشبيه باليقطينة وبدأ بدوره يسخر مني بخصوص الدوقات قائلاً:
- إننا جرّدناهم من دوقياتهم. ولن يكون عندنا أي دوق بعد اليوم وأنت تريد أن تخلّدهم.

وإستمرَّ في هرائه وتخريفه هذا حتى ضاقت نفسي به فقلت:

- أيها الحمقى المجانين. ما أنا الاّ صائغ مسكين أشتغل لكل من يدفع أجري وأنتم تتشفون بي كأني أحد الزعماء السياسيين. ولكني رداً على سخريتكم البلهاء أقول لكم ولتذكروا ذلك جيداً: لن يمرّ يومان أو ثلاثة الاّ وسيكون عندكم دوق آخر ربما أسوء من السلف بكثير.

في اليوم التالي قدم (بتيّني) الى دكاني وقال:

- ما الفائدة من إنفاق المال على السعاة، وأنت تدرك الأمور قبل وقوعها؟ أي جِرْسٍ خفيّ فائق للطبيعة يخبرك بها؟

ثم انبأني بأن (كوزيمو دي مديتشي)[٢٠٤] إبن جيوڤاني قد نصب دوقاً. ولكن بشروط وقيود معينة تحول بينه وبين حزّ الرؤوس والعبث بالمقدرات كما يحلوله ويشتهي.

وهنا جاء دوري في الضحك عليهم، فقلت:

- هؤلاء الرجال في فلورنسا. وضعوا شاباً على صهوة جواد مُطّهم أصيل وأعطوه مهمازاً. وسلموه العنان بكلّ حرية. ثم أطلقوه يسرح في مرج جميلٍ موقر بالفاكهة حافل بالأزهار وغير ذلك مما يبهج الخاطر. ثم أوصوه بالاّ يتعدى الحدود التي رسموها له. والآن قولوا لي من ذا الذي يستطيع أيقافه عندما يصمّم على اجتياز تلك الحدود؟ إن القوانين لايمكن أن تطبّق على من هو سيّد القوانين.

بعد هذا تركوني بسلام ولم يضايقوني قطّ.

بدأت في تصريف شؤون العمل ولم يكن عندي شغل ذو أهميّة. لأني كنت أنتظر عودة صحتيّ اليّ كاملةً. فمازلت أراني عليلاً، لم تزل عنيّ آثار المرض الخطير. في ذلك الزمان عاد الإمبراطور منتصراً من حملته في تونس[٢٠٥] فإستدعاني الپاپا لتبادل الرأي في إختيار هدية مناسبة له وسألني رأيي فقلت: خير هدية هي صليب ذهبيّ كنت قد إنتهيت من تصميم نقوشه وحليته وأظنّه مناسباً جداً لجلالته. فذلك سيرفع من قدر قداسته كما يكسبني إسماً وسمعةً.

كنت في الواقع قد عملتُ ثلاثة تماثيل كاملة الجسم الواحد منها بطول الكفّ - صممتّها قبلاً لكأس الپاپا كليمنت. وهي ترمز الى الايمان، والرجاء، والمحبّة. فأضفت إليها ما يجانسها لقاعدة الصليب. وحملت النموذج الشمعي الى الپاپا مع تصميم شمعي للسيد المصلوب وإضافات أخرى جميلة. فسرَّ بها كثيراً وتمّ التفاهم على كلّ شيء. وجرى تخمين التكاليف قبل إنصرافي. وكان ذلك مساءً بعد الغروب بأربع ساعات. وأمر الپاپا (لاتينو جيوڤينالي) بدفع ما أحتاج من المال في صباح اليوم التالي.

زينّ لـ(جوڤينالي) هذا الذي كان فيه عِرقٌ كبيرٌ من الغباء والحمق، أن يقترح على الپاپا نموذجاً

(٢٠٤) كان تنصيبه في التاسع من كانون الثاني ١٥٣٧.

(٢٠٥) هنا يعود چلليني بذكرياته زهاء سنتين أو سنة واحدة الى الوراء. فقد وصل الإمبراطور نابُلي قادماً من تونس في ٣٠ تشرين الثاني ١٥٣٥ وزار روما في ٥ نيسان ١٥٣٦ أي أن مايقصه الآن وقع قبل إبتلائه بالمرض الخطير الذي وضعه.

جديداً للهدية قام هو بتصميمه والتفكير فيه. وبذلك وقع الإضطراب في الترتيب الذي قررّناه. ولما جئته أطلب المال في صباح اليوم التالي أجاب بصلافته الحيوانيّة المعتادة:

– نحن الذين نضع التصاميم. وما عليك إلاّ التنفيذ، فقبل إنصرافي من لدن الپاپا مساء أمس فكرنا بشيء أفضل جداً.

ما أن سمعتُ هذا حتى ابتدرته دون أن أدعه يضيف كلمة أخرى:

– لا أنت ولا الپاپا تستطيعان ان تفكرا بشيء أحسن من عملٍ يبدو فيه السيد المسيح، والآن يمكنك أن تسمعني قدر ماتحبّ من الهراء والثرثرة.

تولّى عني غاضباً دون أن ينبس بكلمة واحدة، وأخذ يسعى جاهداً لإسناد المهمة الى صائغ آخر. فرفض الپاپا وأرسل يستقدمني في الحال وقال لي إني محقّ تماماً لكنهم يريدون الإستفادة من كتاب نوافل وادعية للعذراء مريم بصوره الرائعة العجيبة الملّونة. كان هذا الكتاب قد كلّف الكردينال دي مديتشي ألفي كراون وأكثر دفعها لصانعه. وسيكون خير هدية للإمبراطورة. وبعدها ستقدمون ما إقترحتهُ أنا للإمبراطور. لأن الصليب في الواقع هدية لائقة به. وبيّن أن هذا البديل لم يتخذ إلاّ لضيق الوقت. إذ يتوقع وصول الإمبراطور خلال شهرٍ ونصف شهر أو نحوه، وقد رغب في أن تكون جلدتا الكتاب من الذهب الخالص المزخرف وأن يرصعّ ترصيعاً كثيفاً بالأحجار الكريمة التي تعادل قيمتها ستة آلاف كراون. ما أن تسلّمت الذهب والجواهر حتى بدأت العمل وبعد إشتغالي بدأب بضعة أيام بدأ جمال صنعتي فيه حتى أن الپاپا لم يكتم أعجابه وأغرقني بالثناء وأكّدّ لي أن ذلك الحيوان (چيوڤيناني) لن يزعجني بعد الآن.

كان العمل بالكتاب قد شارف التمام عند قدوم الإمبراطور. ونصبت أقواس نصرٍ كثيرة في غاية الفخامة إحتفالاً بتلك المناسبة. وبعد أن دخل روما بابهّة وجلالٍ منقطعي النظير (أترك للآخرين وصفهما لأني أريد أن أقصر حديثي على ما يمسّني شخصياً)، أخرج الپاپا فوراً ألماسةً كان قد إبتاعها بأثني عشر ألف كراون. وأرسل بطلبي ثم سلّمني الألماسة وطلب منيّ أنه أصوغ لها خاتماً يناسب أصبعه. ولكنه طلب أولاً أن آتي بالكتاب إليه مهما بلغتُ فيه من تقدّم فجئته به فسّر كثيراً ثم شاورني في أفضل مايمكن أن نتقدم به من عذر للإمبراطور بخصوص عدم إكماله. فأجبتُ إن خير عذر نتوسل به هو مرضي، فهو تعليل معقول سيصدقه الإمبراطور لامحالةٍ بعد أن يرى شحوبي وهزالي.

فقال الپاپا: رأيك حسنٌ ومقبول جداً. ولكن يجب عليك عند التقديم . أن تذكر بأنك تقدم نفسك هديةً له مع الكتاب. ثم شرح لي المراسيم التي سأتبعها بالضبط ولقنني العبارات التي سأقولها. فكررت الكلمات التي لقُنّتها ثم سألته هل سيّسّر لو تكلمت هكذا؟

فأجاب:

– لو وجدت في نفسك الإرادة للتحدث الى الإمبراطور بالشكلّ الذي تخاطبني فهو غاية المنى.

فأجبت "سيكون لدي من قوة الإرادة والثقة في حديثي مع الإمبراطور أضعاف ماعندي عند